د. محمد عمارة

عبد الرحمن الكواكبي
شهيد الحرية ومجدد الإسلام

دار الشروق

عبد الرحمن الكواكبي

شهيد الحرية ومجدد الإسلام

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 257786

تمهيد

أغلب الظن أن هذه الدراسة التي نقدم بين يديها، ستأخذ رقم الثلاثين في سلسلة الدراسات والأبحاث، سواء منها الكتب أو المقالات أو البحوث العميقة، التي كتبها جمع من الباحثين عن مفكرنا العربي الإسلامي العملاق عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م].

وهذه الحقيقة في حد ذاتها، قد تمثل عاملاً يدعو إلى الانصراف عن الكتابة في هذا الموضوع، ودعوة إلى الاكتفاء بما سطر في هذا الميدان.

ولكن الباحث الذي يدرس أغلب ما كتب عن الكواكبي، يجد أن أمامه الكثير من المناطق البكر في عبقريته وأفكاره، والعديد من القضايا التي عولجت من زوايا غير صحيحة، والآراء التي فهمت فهماً مجانباً للصواب، وبذلك يجد، حتى مع كثرة هذه الكتابات، عامل إغراء له كي يخوض محيط البحث والدراسة حول الكواكبي، وماذا كان يمثل؟ وما هو التفسير الأقرب إلى

حقيقة ما أراد، والأكثر صدقاً في التعبير عن ما خط قلمه من صفحات؟.

كما أن كثرة الدراسات ستكون، حينئذ، دليل غنى للكواكبي، وشاهد ثراء لفكره، وأصدق معبر عن أننا بإزاء عبقرية فذة تستحق أكثر مما ظفرت به من الاهتمام والدراسات.

على أن الإيمان بهذه الحقيقة لا يمنع، بل هو يستوجب من الباحث في هذا الميدان تحمل العبء الأكبر، وبذل الجهد الأشق ليكتشف الجديد، ويصحح الخاطىء، وليقدم الدراسة التي يراها أقرب ما تكون إلى الصواب، وأحق بأن تكون هي نقطة الانطلاق في إحلال الكواكبي مكانه اللائق والطبيعي في سلسلة الفكر العربي الإسلامي وحلقات المفكرين العرب والمسلمين العباقرة الذين شهدهم تراث الأمة العربية الإسلامية على مر الأجيال والعصور.

* * *

وليست الأهمية الكبرى التي نراها من وراء تقديم هذه الدراسة عن المجدد الإسلامي عبد الرحمن الكواكبي، متمثلة في إضافة كتاب جديد في سلسلة الأعلام العباقرة الذين حفلت بهم حياة أمتنا، ولا هي تلك الآراء التي نراها قد غابت عن كثيرين من الذين طرقوا هذا الباب بالبحث والدراسة، بقدر ما هي لفت الأنظار، أنظار الذين وضعت وتوضع بين أيديهم مقاليد تربية الأجيال الجديدة في الوطن العربي الإسلامي، إلى مصدر لا ينفد

لنماذج من التقدم والبطولة والفداء، تتمثل ضمن ما تتمثل في مفكرنا العربي الإسلامي الكبير، وتقديم صفحة مشرقة للمثقفين العرب والمسلمين الذين ارتبطت حياتهم بأفكارهم، ولم يعيشوا ذلك الانفصام الذي نشكو اليوم منه ومن آثاره، والذي يجعل حياة المثقف وأفكاره على طرفي نقيض؟!.

ولعل دراسة الكواكبي أن تكون أكثر جذباً لهذه الأنظار، وأكثر إغراء لعيون مثقفينا بالالتفات إلى كثير من صفحات التراث العربي الإسلامي وآفاقه، لأن تقدميته وثوريته ولا شك ستبهران المثقفين الذين ينهجون النهج الثوري والتقدمي في ميادين المعرفة والتفكير والممارسة والتطبيق. كما أن أصالته وعمقه إنما يمثلان ميزة كبرى يجب أن يتحلى بها المثقف العربي الإسلامي الذي يشعر بعظم المسؤولية التي تقع على عاتق الكاتب المثقف المناضل في هذه الظروف.

ومن هنا كانت دراسة الكواكبي، كحياة خصبة، وبناء فكري متكامل وعملاق، إنما تمثل تعميقاً لفكرنا التقدمي المتحرر، وتأصيلاً لنظرتنا المستقبلية، بقدر ما هي تقديم وإبراز لصفحة مشرقة من صفحات التراث. **فهي ليست «عودة» إلى الماضي، بقدر ما هي «تزود» للمستقبل! وهي ليست «ركوناً» إلى القديم، بقدر ما هي «استعانة» بالأصالة التي شهدها تراثنا، على المضي قدماً نحو المستقبل، الذي نأمل أن يكون أكثر إشراقاً وأخف قيوداً وأكثر أمناً من ذلك الماضي، بل ومن الحاضر الذي نعيش فيه؟!..**

وهذه ميزة اتخاذ الصفحات المشرقة من ماضينا الفكري والنضالي مادة للحديث والدرس والتقديم، والمهمة الصعبة التي تمثلها عملية الاختيار لموضوعات التراث التي تقدم إلى أمتنا في لحظات البناء والنهوض.

* * *

وعلى الرغم من شعور الرضى والارتياح الذي نحسه إزاء هذا الجهد الذي أودعناه هذه الصفحات، إلا أن إحساسنا الصادق بثراء الكواكبي المفكر، وغناه الثوري إنما يجعلنا نقدم هذا الجهد كنقطة انطلاق فقط في هذا الميدان، فبقدر نجاح هذه الدراسة في تقديم الكواكبي كبناء متكامل من زاويتي حياته وفكره ونضاله، وكصاحب نظرة للحياة، ونظرية في كثير من القضايا الفكرية والسياسية، تستحق وتستوجب تقديم العديد من الدراسات التفصيلية المتخصصة، بقدر النجاح في ذلك يكون صدق إحساسنا بالرضى والارتياح للجهد المبذول في هذه الصفحات.

* * *

وليست المميزات القومية والفكريـة لأمة من الأمم، ولا التقاليد الثورية لشعب من الشعوب، إلا وليدة البحث والبلورة لمجموعة من القيم والأبنية الفكرية لدى العديد من قادتها وأعلامها، تسلك بعد ذلك في سلك الأمة الواحدة، بعد أن تسلك في سلك الشخصية الواحدة، أو العصر الواحد. صنعت ذلك كل الأمم، وسنت هذه السنة كل الشعوب.

بل إننا نشهد في عصرنا هذا الذي نعيش فيه العديد من الأمم التي امتلكت بعد تحررها وثوراتها ناصية حاضرها ومفاتيح مستقبلها، تبحث في ماضيها وتراثها، وعندما يعوزها المجد الحقيقي، لفقر تراثها وقصر عمرها الحضاري، نجدها تنفخ في الصغير ليكبر، وفي الضعيف ليقوى، وفي الزيف ليلبس ثياب الجيد والمجيد، لأنها تريد لجيلها الحاضر، وأجيالها المستقبلة زاداً من هذا التراث يعينها على المستقبل ويشحنها بشحنات من المجد والعزة تذلل أمامها صعاب الحياة وأخطار الريادة والبناء.

أفلا يكون أجدر بنا أن نبعث صفحات ماضينا المشرقة، وآيات تراثنا الخالدة، وهي كثيرة وضخمة، إلى الحد الذي لن نحتاج معه، في هذا الميدان، إلى الزيف أو المبالغة لنشحن بها وجدان أمتنا، بقدر ما سنحتاج إلى مضاعفة الجهد للإحاطة بآيات هذا التراث وصفحاته؟.

وما على الذين يشكون في ذلك أو يشككون إلا أن يمعنوا النظر والفكر في هذه الظاهرة التي شهدها ويشهدها هذا الحقل من حقول الدراسة والبحث، والتي تتجلى في تنازع العديد من الحضارات والثقافات، الأحقية في نسبة العديد من مفكري حضاراتنا العربية الإسلامية إليها، فالأسبان يريدون انتزاع مفكري الحضارة العربية الإسلامية الأندلسيين لتغتني بهم وبمجدهم ذكريات الأمة الأسبانية ومجدها. والفرس، بل وكثير من أمم الاتحاد السوفيتي وقومياته الآسيوية تصنع ذلك مع العديد

من مفكرينا العرب المسلمين، الذين هم، بالدرجة الأولى، جواهر في عقد الحضارة العربية الإسلامية، وكيانات عزيزة في وجدان أمتنا، ونبضات في قلب الإنسان العربي الإسلامي، الذي شهدت بلاده حضارة من أعرق الحضارات التي عرفها الإنسان.

* * *

وليست دراسة الكواكبي بمفضية بنا، فقط، إلى هذه الميادين والساحات، بل إن في الأفكار والقضايا التي عالجها مفكرنا الكبير، وفي وجهات النظر التي قدمها عن العروبة، والحرية، والاشتراكية، والدين وتجديده، والتربية. . الخ. . الخ. . لدليلاً جيد البرهنة على عمق أصالة الإنسان العربي الإسلامي في هذه القضايا التي هي الشغل الشاغل لنا هذه الأيام.

والذين قرأوا عن الاشتراكية الخيالية في أوربا قبل عصر ازدهار الاشتراكية العلمية، وشهدوا اهتمام المفكرين الاشتراكيين العلميين بهذه الاشتراكية الخيالية، أفكارها وروادها، رغم هزئها وضحالة أفكارها، بل وسذاجتها في كثير من الأحيان، سيدهشون كثيراً لغياب آراء الكواكبي عن أن تتصدر أي حديث عن الاشتراكية أو العروبة، أو غيرهما من القضايا التي نقدمها اليوم إلى أمتنا وهي تبني الحاضر وتصنع المستقبل بإيمان عريق وعزم جديد.

ومن هنا كان بحث حياة الكواكبي ودراسة أفكاره، إنما تمثل

بحثاً في القضايا الراهنة، ودراسة لملامح المستقبل، بقدر ما هي إبراز لصفحة من صفحات التراث، ولعل ذلك قمة المجد والثراء لأي أمة من الأمم وأي مفكر من مفكريها، ذلك المجد والثراء المتمثل في ارتباط حلقات تاريخها المشرق، وصفحات نضالها المجيد، كما أنه المهمة التي يجب أن يعنى بها الدارسون لمثل هذه الشخصيات، والمنقبون عن مثل هذه الصفحات.

وهو الأمر الذي نرجو أن نكون قد اقتربنا من بلوغ الغاية فيه، فيما سنقدم عن مفكرنا العربي الكبير من صفحات.. صفحات تجسد حياته ونضاله.. وتحكى ما قدم لأمته من آراء ونظريات وأفكار، وذلك حتى تكون هذه الدراسة المدخل الطبيعي للانفتاح على تراثنا الثوري والتقدمي.. وأيضاً، المدخل الطبيعي لتحديد ملامح الغد الذي تحلم به أمتنا العربية الإسلامية.. وعلى الله قصد السبيل.. فهو ولي التوفيق.

القاهرة   دكتور محمد عمارة

بطاقة حياة

[إن كل الأنبياء العظام، عليهم الصلاة والسلام، وأكثر العلماء الأعلام، والأدباء النبلاء، تقلبوا في البلاد، وماتوا غرباء؟!..].

الكواكبي

(١)

كثيرون منا لا يحفلون اليوم بكثير من الألقاب التي كانت تضفى، في الماضي، المهابة والإجلال على الذين يحظون بحملها وحيازتها، والتي كان يمنحها الأباطرة والملوك والأمراء، لأن الفكر الثوري والقيم التقدمية التي يستظل عصرنا براياتها وأعلامها قد ذهب بروعة هذه الألقاب ومهابتها!.

وكثيرون منا كذلك لا يحفلون بألقاب «الشرف» التي كانت تضفيها على الإنسان عملية انتسابه إلى سلالة معينة، أو بيت معين لعب دوراً هاماً في حقبة من حقب التاريخ، لأن القيم العلمية التي نؤمن بها، والحقائق التي أثمرها علم الجغرافيا البشرية وأبحاث السلالات والأجناس قد جعلت من الحديث عن النقاء العرقي وتمايز الأنساب، حديث خرافة، قبرته الشعوب بانهيار الفاشية والنازية في الحرب العالمية الثانية، وهي تجاهد الآن لإزالة بقاياه من مجتمعات التمييز العنصري التي لا زالت تتمسك حتى الآن ببقايا هذا المفهوم في إطار الحضارة الأوربية،

وامتداداتها العنصرية في جنوب القارة الإفريقية وكيان الصهيونية العنصري في قلب وطننا العربي! . .

غير أن هذا الجو الفكري والحضاري المشبع بالقيم والحقائق العلمية، الذي يتنفس فيه عصرنا، لم يكن هو الجو الذي عاش فيه أسلافنا، الذين كانت الألقاب والأنساب تمثل في حياتهم الشيء الكثير والهام، بل وربما الشيء الأهم في كثير من الأحيان.

ومن هؤلاء الأسلاف، وفي عصرهم كان مفكرنا العربي الإسلامي الكبير عبد الرحمن الكواكبي. «الشريف»، سليل الأسرة الهاشمية الشريفة، والتي يعود نسبها، أباً وأماً إلى الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، ومن ثم فإن «نقابة الأشراف» كانت فيها، وبسببها احتلت المكان الأرفع في ولاية «حلب» إحدى الولايات العربية التي عاشت تحت نير الحكم العثماني أكثر من ثلاثة قرون قبل أن يولد مفكرنا الكبير.

فوالده وهو السيد «أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي» (١٨٢٩ - ١٨٨٢ م)، إنما يرجع نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، عبر مهاجر جاء إلى «حلب» من بلاد فارس، حيث تزوج من سيدة حلبية، أنجبت منه نسل الأسرة الكواكبية. وهذا المهاجر الهاشمي إنما تمر شجرة نسبه في صعودها نحو الإمام علي بأحد أشراف مدينة «أردبيل» إحدى مدن «أذربيجان» الشهيرة، وهو «صفي الدين الأردبيلي».

بل إن هذا النسب «الشريف» إنما كانت تدعم من أهميته تلك

الحقبة التي أضافت إليه ما يمكن أن نسميه «بالدم الأزرق»، لأن الحقبة الزمنية التي تفصل بين المهاجر الهاشمي إلى «حلب» وبين «صفي الدين الأردبيلي» إنما تمر عبر جد من أجداده هو «إسماعيل الصفوي»، مؤسس الأسرة الصفوية الشيعية في «تبريز»، والتي حكمت إيران قرابة قرن ونصف من الزمان.

فإذا أضاف والد مفكرنا الكبير إلى هذا المجد التليد علماً واسعاً، جعل منه حجة في علم الفرائض (الميراث)، وأميناً لفتوى الولاية مدة من الزمن، وعضواً بمجلس إدارة الولاية، وقاضياً لها، ومستودع سر الناس ومحرر عقودهم وصكوك معاملاتهم، ثم خطيباً وإماماً في مسجد جده «أبي يحيى» ومديراً ومدرساً بالمدرسة الكواكبية، والمدرسة الشرفية، والجامع الأموي بحلب. إذ أضاف الوالد إلى مجد النسب ذلك المجد العلمي والإداري والسياسي أخذت تبرز وتتجسد لنا ملامح ذلك البيت الذي ولد فيه مفكرنا العربي الإسلامي الكبير.

وعلى نفس الدرب تضيف أمه السيدة «عفيفة بنت مسعود آل النقيب» صفحات من ذلك المجد الذي ورثه الكواكبي في هذا الميدان. فأبوها مفتي «أنطاكية»(١)، وأحد أجدادها «الشريف» أبو محمد ابراهيم، الذي هاجر من «حران»(٢) إلى حلب زمن

---

(١) إحدى المدن الشهيرة في الشام منذ العصور الوسطى، وتقع غربي حلب، وفي الشمال الغربي من المعرة، وشرقي البحر المتوسط.

(٢) مركز حضاري وثقافي قديم، يقع الآن شمالي العراق.

أبي العلاء المعري (٩٧٣ ـ ١٠٥٨ م)، والذي مدحه أبو العلاء، رغم قلة مدائح شاعرنا العربي الكبير(١).

فالأسرة، بهذه الصورة، إنما تضيف إلى المجد الذي أورثها إياه الانتساب إلى الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مجداً آخر، بل أمجاداً حصلت عليها من الاشتغال بالعلم، والدخول في إطار جهاز الدولة، قضاء وإدارة وإفتاء، عندما مارس الكثير من رجالاتها، وبخاصة والد عبد الرحمن، العمل في كثير من المناصب الهامة في حكومة الولاية في ذلك الحين.

ومن ثم فإن أسباب الثراء والرفاهية إنما كانت من الوفرة والكثرة أمام أعضائها بالدرجة التي يحسدهم عليها الكثيرون.

(٢)

فإذا ما انتصف القرن التاسع عشر، ومضت على انتصافه أعوام أربعة، ولد عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٨٥٤ م.

وعلى الرغم من قرب العصر الذي ولد فيه الكواكبي منا، ومن معايشتنا لابنه الدكتور أسعد الكواكبي ولأحفاده، الذين يؤكدون أن ميلاده إنما كان في هذا التاريخ(٢) إلا أننا نجد من

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ١٢، ١٥، ١٦. طبعة دار المعارف ـ مصر ـ سلسلة نوابغ الفكر العربي.

(٢) د. أسعد الكواكبي. مجلة [الحديث]، حلب. سبتمبر سنة ١٩٢٥ م. ص ٥٤٢ ـ ٥٥٤ [عن المرجع السابق].

يجعل تاريخ ميلاده هو سنة ١٨٤٨ م[1]، ومن يجعله سنة ١٨٥٣ م[2].

ولعل في التفسير الذي يقدمه لنا ولده عن السر في وجود الأوراق الرسمية التي تحكى أن تاريخ ميلاد والده إنما كان سنة ١٨٤٨ م، ما يكشف لنا هذا العماء والاختلاف، فلقد اضطر الكواكبي إلى أن يغير من تاريخ ميلاده، فيضيف إلى سنه الحقيقي ست سنوات، وذلك حتى يتمكن من ترشيح نفسه للانتخابات في حلب أثناء نضاله ضد سلطة العثمانيين[3]. أما الحديث عن ميلاده في سنة ١٨٥٣ م فلعله خطأ محض من بعض الدارسين.

(٣)

وعندما بلغ الكواكبي العام السادس من عمره، توفيت والدته، إلا أن خالته السيدة «صفية» قد قامت بدور هام في تعويضه عن فقد أمه المبكر، فحضنته ثلاثة أعوام عندها بمدينة «إنطاكية»، وكانت سيدة فاضلة استفاد الكواكبي من كبر عقلها ونفسها الشيء الكثير. كما قامت بتعليمه اللغة التركية، التي أجاد

---

(١) أحمد أمين [زعماء الإصلاح في العصر الحديث] ص ٢٤٩، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م.

(٢) د. بطرس بطرس غالي [الكواكبي والجامعة الإسلامية] ص ٧. طبعة القاهرة، سلسلة «كتب قومية» رقم ٣٤.

(٣) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ١٦ - ١٧.

تعلمها فيما بعد بمدرسة الشيخ «ظاهر الكلزي» بحلب، والتي أضاف إليها تعلم الفارسية، فضلاً عن اللغة العربية التي بلغ فيها المستوى الذي يصبو إليه رواد الفكر العربي ونابغوه.

وعندما بلغت سنه الحادية عشرة عاد مرة ثانية إلى «أنطاكية»، وفيها دخل إحدى المدارس الخاصة، حيث تتلمذ على عم أمه السيد «نجيب النقيب»، الذي شغل منصب الأستاذ الخاص للأمير المصري الخديو عباس حلمي الثاني فترة من الزمن.

وفي الثانية عشرة من عمره عاد مرة أخرى إلى حلب، حيث انتظم في «المدرسة الكواكبية» التي شهدت والده مدرساً ومديراً(١).

وإذا كانت الظروف لم تتح للكواكبي دراسة إحدى اللغات الأوربية الغربية، فلقد ظهرت في كتاباته آثار قراءة المترجمات عن هذه اللغات، وخاصة في كتابه [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد](٢)، كما أن ثقافته لم تقتصر على العلوم التي اقتصرت عليها حياة العربية في عصور انحطاطها، بل امتدت دراساته لتشمل كذلك المنطق والرياضة والطبيعة والسياسة، إلى جانب العلوم العربية والشرعية التي كانت سائدة في مثل البيئة العلمية التي نشأ بها مفكرنا الكبير(٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧، ١٨.

(٢) أحمد أمين [زعماء الإصلاح] ص ٢٥٣.

(٣) مجلة [الغد] المصرية: بحث في باب «من التراث العربي» تحت عنوان: «عبد الرحمن الكواكبي» كتبته، ونشر دون توقيع، العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م.

(٤)

وعندما بلغ الكواكبي الثانية والعشرين من عمره، أخذ يطل على الحياة العامة، مؤثراً فيها هذه المرة، لا مجرد متأثر بها ودارس متعلم، بل لقد أخذ يطل على هذه الحياة من خلال أوسع أبوابها، ومستخدماً في تأثيره فيها أكثر الأدوات حساسية وفعالية في ذلك الحين، بل وحتى في عصرنا هذا الذي نعيش فيه.

فلقد كانت تصدر بحلب يومئذ جريدة رسمية تحرر بالعربية والتركية، تحمل اسم [فرات] فالتحق الكواكبي بها محرراً، وبعد عام واحد، ومن خلال الجهد البارز الذي صبه في عمله الجديد، عين محرراً بها، رسمياً، براتب قدره ثمانمائة قرش.

ولكن النزوع إلى الحرية، وإرهاصات مستقبل حياة الكواكبي، التي أخذت تظهر منذ ذلك السن المبكر بالنسبة لمناضلي عصره، قد جعلته يتنافر مع هذا المنبر الرسمي الذي يشرف على توجيهه الوالي العثماني لحلب، فانطلق الكواكبي مخلفاً وراءه هذا الإطار الحكومي، واتخذ لنفسه مهمة الرائد الذي يرتاد البكر من المهام والمسؤوليات، فأصدر في سنة ١٨٧٨ م، أي في الرابعة والعشرين من عمره، بالاشتراك مع السيد هاشم العطار صحيفة [الشهباء]، وهي أول صحيفة عربية خالصة تشهدها ولاية حلب. وفي هذا المنبر، الذي لم يمهله الأتراك أكثر من خمسة عشر عدداً فقط، ظهرت مواهب الكواكبي، وأخذت مقالاته النارية العميقة توقظ ضمائر مواطنيه، وإن كانت قد

أيقظت كذلك سيف الوالي العثماني «كامل باشا القبرصي»، الذي أغلقها!، وهو الوالي الذي تدرج فيما بعد في مناصب الدولة العثمانية حتى صار «صدراً أعظم»، والذي كان لقب «عدو الحرية والصحافة» أحد ما يتميز به من ألقاب؟!!.

ولكن الكواكبي لم يستسلم، بعد هذا المصير الذي انتهت إليه [الشهباء]، فأنشأ في العام التالي -[١٨٧٩ م]- جريدة [الاعتدال]، وواصل فيها تقديم آرائه وأفكاره، كما واصل الأتراك إزاءه اضطهادهم ومضايقاتهم، فأغلقها، هي الأخرى، واليهم «جميل باشا»، شيخ وزراء الدولة العثمانية فيما بعد، وصاحب الصراع المرير مع مفكرنا العملاق، كما سيأتي عنه الحديث بعد قليل[1].

(٥)

والأمر الجدير بالملاحظة والإبراز، ونحن نتحدث عن هذا الطور من أطوار حياة عبد الرحمن الكواكبي، هو أن نزوعه المبكر والعنيد، إلى الثورة ضد الأتراك العثمانيين، لم يكن وليد حرمان يحس به في المجتمع الذي نشأ فيه، ولا ثمرة لافتقاده المكان اللائق به في الولاية التي ولد وتربى فيها، فلقد كانت له من الثروة والمال، ومن التجارة الرابحة ما يملأ حياة عدد من أصحاب

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ١٩، و[الغد] العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م.

النفوس الكبيرة، فضلاً عن حياة واحد من الناس، كما كانت له من أرصدة المجد والمهابة التي أثمرتها ظروف أسرته «الشريفة» وإمكانياتها العلمية والخلقية، و«نقابة الأشراف» المتوارثة فيهم، ما يفتح أمام الرجل أبواب «الانسجام» و«التعايش» مع الحكام الأتراك العثمانيين، بل إن هذه الأبواب قد فتحت بالفعل للكواكبي، أبواب جهاز الدولة ومناصبها الرسمية وشبه الرسمية في الولاية، ودخل منها الكواكبي، وعاش في قاعاتها وأبهائها سنين عدة وإن كان «التعايش» و«الانسجام» قد ظلا بعيدين عن أن يشملاه والعثمانيين في يوم من الأيام.

ففي سنة ١٨٧٩ م عين الكواكبي عضواً فخرياً - [بدون راتب] - في لجنتين هامتين من لجان الولاية، هما لجنة «المعارف» ولجنة «المالية»، وفي العام التالي كذلك عين عضواً «بلجنة الأشغال العامة». ثم أخذت أعماله ومسؤولياته تمتد إلى العديد من اللجان والمناصب في مجموعة كبيرة من القطاعات، منها على سبيل المثال «لجنة المقاولات»، ورئاسة «قلم المحضرين» [مأمورية الإجراء] في الولاية، وعضوية «اللجنة المختصة بامتحان المحامين»!!.

وفي سنة ١٨٨١ م أصبح مديراً فخرياً للمطبعة الرسمية بحلب، ثم الرئيس الفخري «للجنة الأشغال العامة» التي عين عضواً بها منذ عامين.

ثم دخل إلى ساحة القضاء عضواً بمحكمة التجارة بالولاية

بأمر من «وزارة العدلية» العثمانية، ثم عاد مرة أخرى مأموراً «لمأمورية الإجراء» سنة ١٨٨٦ م[1].

وفي سنة ١٨٩٢ م عين رئيساً للغرفة التجارية، وجمع إليها كذلك رئاسة المصرف الزراعي، وبعد ذلك بعامين عين رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية بالولاية، وفي سنة ١٨٩٦ م أصبح رئيساً لكل من غرفة التجارة ولجنة البيع في الأراضي الأميرية[2].

وليست هذه الصفحات من حياة الكواكبي، «كرجل دولة»، هي التي تقدم لدارسيه ملامح جديدة من حياته ليست مألوفة لديهم فحسب، بل إن المستوى، مستوى رجل الدولة، الذي بلغه مفكرنا ليتعدى نطاق العمل الوظيفي إلى إطار كبار الرجال الذين يشغلون في حياة شعوبهم أبرز الأماكن في سجلات «رجال الدولة».

فعلى الرغم من أن البعض قد قال: إن الكواكبي «لم يعرض للأسباب الاقتصادية، وهي أسباب ذات شأن في كل فتور، واكتفى بمجرد الإشارة إلى الفقر دون تحليل لأسبابه ودواعيه، ودون إشارة إلى علاجه»[3]، فإننا نجد، في أفكاره وآرائه ما ينقض هذا الرأي، كما سيجيء ذلك في حينه، بل إننا لواجدون

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٠ - ٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦.

(٣) د. بطرس غالي [الكواكبي والجامعة الإسلامية] ص ٢٧.

في حياة الكواكبي، وخاصة جوانبها العملية المتمثلة فيه «كرجل دولة»، ما ينقض هذا الرأي كذلك.

فعندما يكون التخلف أحد الأسباب الرئيسية في فقر الولاية، نجد الكواكبي يفكر في المشروعات الكبرى التي تستهدف تطوير حلب، وذلك مثل إنشاء مرفأ «السويدية»، ومد خط حديدي منها يربطها بمدينة حلب، بل ونجده يسعى في توصيل نهر «الساجور»، من قرب مدينة «عينتاب»، إلى حلب، ويطلب امتيازاً لنقل عين «البليعة» من «أرمناز» إلى «إدلب»، لأن المستنقعات المتخلفة عن هذه العين إنما تمثل مصدراً لتولد البعوض، ومن ثم انتشار الأوبئة والأمراض!.

كما نجد الكواكبي ينفذ مشروع إنارة حلب، وذلك بواسطة توليد الكهرباء من شلال مائي يحدثه نهر العاصي في مضيق بالقرب من «دركوش».

كما يقوم بتأميم «شركة انحصار الدخان» (الريجي)، وذلك كامتداد لإحساسه بالمسؤولية في هذا النطاق، وسعيه الدائم لمعالجة أسباب التخلف الذي فرضه على ولايته الأتراك العثمانيون[1].

(٦)

وعندما كانت تعوز الكواكبي حرية الحركة في حلب كولاية،

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٥.

أو القدرة على التأثير في إطار القيود التي تقتضيها المناصب الرسمية وشبه الرسمية، كان لا يتردد في هجر هذه الأماكن، والاستقالة من هذه المناصب، ليعطي كل حياته وطاقاته وإمكانياته للفكر الذي نذر نفسه لخدمته، والأمة التي أوقف حياته للذود عن حماها.

فنراه يرفض المراقبة والتضييق المفروضين عليه في سنة ١٨٨٦ م فيستقيل من [مأمورية الإجراء] و[محكمة التجارة] ليتفرغ لمهنة قَلَّما امتهنها قبله أحد من المناضلين في تاريخ الشعوب، فيحرر ظلامات الناس وشكاواهم ضد الموظفين والولاة العثمانيين، ويصبح «عرضحالجياً» للحرية يؤمه الجميع؟!!، ويصل الكواكبي عن هذا الطريق إلى معرفة أسرار حياة الناس وما تحفل به من شقاء ومهانة وقصص دونها كل خيال، كما يصل عن هذا الطريق كذلك إلى قلوب هؤلاء الناس البسطاء الذين حرر لهم آلاف العرائض والظلامات، حتى وصل الحال بالسلطات العثمانية المركزية إلى أن توفد إلى حلب سنة ١٨٨٥ م «صاحب بك»، رئيس دائرة المحاكمات في شورى الدولة، للتحقيق في الظلامات التي حررها الكواكبي للناس ضد الموظفين والولاة العثمانيين!.

كما نراه يستقيل مرة ثانية في سنة ١٨٩٢ م من رئاسة «غرفة التجارة»، و«المصرف الزراعي»، ليهجر حلب هذه المرة خفية إلى استانبول، فيقيم سراً في أحد «خاناتها»، ولا يعود إلى حلب إلا بعد اكتشاف أمره واستدعائه من قبل كبير مشعوذي الدولة

العثمانية في ذلك الحين الشيخ «أبو الهدى الصيادي» [١٨٤٩ - ١٩٠٩ م][1].

ولعل في هجر المناصب الرسمية وشبه الرسمية، بل والهجرة من حلب ـ التي مثلت بالنسبة للكواكبي إرهاصات هجرته الكبرى إلى مصر فيما بعد ـ لعل في ذلك التعبير الأدق عن رهافة إحساسه بالحرية، وعشقه الذي لا يوصف لها، وأن الرجل إنما كان نموذجاً طيباً للإنسان الذي يرفض الظلم ويأبى أن يعايشه، فضلاً عن أن يعيش تحت نيره، لأن في معايشته ظلماً للنفس، فضلاً عن ظلم الآخرين، لقد كانت نفسه الحرة أكبر مما ورث من جاه ومال وسلطات وسلطان! . .

على أن هذه الشجاعة النادرة التي جعلت الكواكبي يصارع طغيان العثمانيين، لم يكن مصدرها فقط تلك السجايا الذاتية التي تحلت بها شخصيته العملاقة، ولا ذلك الفكر الثوري المتقدم الذي بذر بذوره في حلب منذ أطل على حياتها العامة وهو في الثانية والعشرين من عمره، وإنما كان له، إلى جانب ذلك، من تأييد الناس ومساندتهم لجهوده وجهاده زاد متجدد، استعان به في نضاله، وأعانه على مواصلة هذا النضال.

فعندما يطلق المحامي الأرمني «زيرون جقماقجيان» نيران مسدسه على الوالي العثماني في حلب «جميل باشا» في سنة

(١) وهو الذي ساهم في اصطهاد العديد من الأحرار، وفي مقدمتهم جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم.

١٨٨٦ م لا يدع الوالي الفرصة تمر دون أن يغتنمها، فيودع الكواكبي غياهب السجن.. وعند ذلك تثور جماهير الشعب، وتطلب الإفراج عنه، فيضطر الأتراك إلى إطلاق سراحه بعد بضعة عشر يوماً من سجنه، وعندما يعزل الوالي «جميل باشا»، يضطر الوالي الجديد إلى تعيين الكواكبي رئيساً لبلدية حلب!.

وعندما يغتصب أبو الهدى الصيادي من أسرة الكواكبي «نقابة الأشراف» في حلب، ويخوض الكواكبي ضده معركة ضارية، نجد الرأي العام في الولاية يقف إلى جوار مفكرنا الكبير، صاباً جام غضبه على الصيادي، الذي أصبح رمزاً للرجعية والاتجار بالدين، بل لقد رفض الناس تصديق صحة «نسبه»، بعد أن رفض الكواكبي التصديق عليه؟!.

وعندما يبتعد الكواكبي عن ساحة القضاء، نرى المحامين يلجأون إليه لمراجعة قضاياهم، والاسترشاد بخبرته وآرائه في أنجح الطرق لكسب قضايا المتقاضين، وانتزاع الحقوق من العثمانيين!.

وعندما يزور الوالي التركي «عارف باشا» بعض «الوثائق» التي تدين الكواكبي بالاتصال بدولة أجنبية، والاتفاق معها على تسليم المدينة لها، ويودع الكواكبي السجن، ويحكم عليه قضاء الولاية المرتشى بالإعدام، نرى الرأي العام يهب مدافعاً عنه، وطالباً إعادة محاكمته أمام محكمة «بيروت»، بعيداً عن نفوذ الوالي وسلطانه، وبعيداً عن قضائه المرتشى، وتفلح الحملة في إعادة

المحاكمة من جديد، لتبرىء المحكمة البيروتية ساحة الكواكبي، فيعود إلى حلب من جديد[1]!.

ذلك لأن الكواكبي إنما كانت حياته وفكره قطعة من حياة أمته وفكرها، ومن ثم فلقد كان جديراً بذلك الحب، بل التقديس، الذي أحاطه به الناس، وهذا هو السر في غياب النغمة اليائسة من حياته وفكره على السواء، رغم ما قاساه من آلام الغربة، والهجرة، ووحشة السجن، وعذاب الاضطهاد!.

(٧)

وعندما بلغت حدة الصراع بين الكواكبي والسلطة العثمانية بحلب ذروة عنفها، وخشيت هذه السلطة عاقبة تحركات الناس دفاعاً عن الكواكبي، وتطوراتها، ولم تلن قناته في هذا الصراع، أخذت تبيت له من المكائد والمؤامرات ما هو أكثر إرهاباً من السجن، وأشد وطأة من الإبعاد عن ساحات الوظائف والمسؤوليات.

ولما لم يهتم الرجل بما سببه له «أبو الهدى الصيادي» و«عارف باشا» من خسارة ألوف الجنيهات في تجارته، أخذوا يسلطون عليه بعض العصابات لاغتصاب مزروعاته وإتلافها، بل وسلطوا عليه جماعة من الأرمن للاعتداء عليه[2]!.

---

(١) [الغد] العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م.

(٢) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٧.

ولعل الكواكبي كان يردد في أيام محنته هذه آيات القرآن الكريم التي ترسم أشرف السبل أمام المناضلين في مثل هذه الظروف عندما تقول إحداها: [إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا: فيم كنتم؟، قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً][1].

فصح عزم الكواكبي على الهجرة إلى مصر حيث ملتقى القيادات العربية الإسلامية التي تصارع الظلم والطغيان، سواء منه العثماني أو الأوربي، في سائر أجزاء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وتحت ستار السفر إلى استانبول لتقديم بعض الظلامات، كالمعتاد، غادر حلب إلى مصر حيث استقر به المقام.

* * *

وكما اختلف الناس في تاريخ ميلاد الكواكبي، فإننا نجدهم يختلفون كذلك في تحديد تاريخ هجرته هذه إلى مصر، بل إن الخلاف هنا إنما هو أعقد وأشمل، رغم أهمية هذا الحدث في حياة مفكرنا الكبير، ورغم قرب العهد بحدوث هذه الهجرة أكثر من عهدنا بتاريخ ميلاده، الذي اختلفوا حوله هو الآخر!..

فالبعض يذكر أنها قد تمت في سنة ١٣١٦ هـ سنة ١٨٩٩ م، ويذكرون أن ذلك إنما كان في الثاني والعشرين من شهر

---

(١) النساء: ٩٧.

رجب[1]. ومع أن شهر رجب من العام الهجري سنة ١٣١٦ هـ إنما يوافق العام الميلادي سنة ١٨٩٨ م، لا سنة ١٨٩٩ م. ثم يذكرون أن سن الكواكبي كانت يومئذ ٤٧ عاماً، مع أن الأصح أن يقال إنها كانت ٤٤ عاماً فقط، إذا اعتمدنا العام الهجري سنة ١٣١٦، و٤٥ عاماً إذا اعتمدنا التاريخ الميلادي الذي ذكروه وهو سنة ١٨٩٩ م؟!..

بينما تذكر مصادر أخرى أن تاريخ هجرته إلى مصر إنما هو العام الهجري سنة ١٣١٨ - [سنة ١٩٠٠ م][2].

والذي يبدو أقرب إلى الصواب هو أن هجرة الكواكبي إلى مصر إنما كانت في سنة ١٨٩٩ م، وذلك لأن وفاة الرجل قد أجمع الناس على أنها إنما كانت في يونيو سنة ١٩٠٢ م، والأستاذ المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا [١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]، وكان صديقاً له، عندما يكتب عنه عقب وفاته، في [المنار] سنة ١٩٠٢ م ويتحدث عن كتابه [أم القرى] وتاريخ طبعه بمصر، يقول: «ونقحه ست مرات، آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيف، أي عقيب قدومه إلى مصر»[3].

وهو نص، وإن لم يحدد تاريخ الهجرة بحسم وجلاء، إلا أنه

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٨

(٢) [الغد] العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م. ود. عبد الرحمن الكواكبي - الحفيد - في مقدمة [أم القرى] طبعة حلب سنة ١٩٥٩ م.

(٣) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٥٥.

يشير إلى أن حدوثها في سنة ١٨٩٩ م هو الأمر الأقرب إلى أن يكون تاريخها الصحيح[1].

(٨)

وفي مصر وجد الكواكبي المناخ الحر والجو الصحي الذي يتيح له، لا مجرد نشر أصول ومسودات الفصول والموضوعات التي جاء بها من حلب، فقط، بل والفرصة السانحة لإدخال التعديلات والإضافات التي ما كان له أن يفكر في إدخالها وإضافتها وهو هناك في ظل كبت العثمانيين وإرهابهم المشرع على أعناق الأحرار وعقولهم وقلوبهم.

فالاحتلال الإنجليزي لمصر، انسجاماً مع تناقضاته مع العثمانيين، يتيح لأعداء الأتراك قسطاً من الحرية في الحركة لا بأس به، وانعدام الفعالية للتبعية الإسمية التي تربط مصر بالأتراك، والتناقضات التي كانت تقوم في كثير من الأحايين بين خديو مصر عباس حلمي الثاني [١٨٧٤ - ١٩١٤ م] وبين السلطان العثماني، واجتماع القيادات العربية الثائرة والحرة في أحضان القاهرة، وانفتاح نوافذ مصر إلى حد كبير على الثقافة الأوربية، كل ذلك قد جعل الكواكبي يطور فكره ويضيف إليه الجديد.

وهذه الحقيقة التي تمثل تطوراً جوهرياً في حياة مفكرنا إنما

---

(١) ويؤيد ذلك ما جاء في تحديد تاريخ هذه الهجرة في مقدمة [طبائع الاستبداد].

يستدعي إبرازها والاطمئنان إليها أن نلمس ذلك الخلاف والجدل الذي دار ويدور أحياناً حول المكان الذي ألف فيه الكواكبي كتابيه الشهيرين [أم القرى] و[طبائع الاستبداد].

فحفيد مفكرنا الكبير، الصديق الدكتور عبد الرحمن الكواكبي يقطع بأن هذين الكتابين قد ألفهما جده في حلب قبل الهجرة إلى مصر[1].

ويقطع آخرون بأن حلب إنما هي الموطن الذي ألف فيه الكواكبي كتابه [أم القرى][2] أما [طبائع الاستبداد] الذي كان أول ما نشر الكواكبي عند وصوله إلى مصر، فإنهم لا يقطعون بأن حلب كانت موطن تأليفه، لأن المؤلف لم يطلع أحداً من أصدقائه على فصوله قبل أن يهاجر من هناك[3].

بينما اكتفى البعض بالنسبة لهذه المسألة بالحديث العام عن أن [طبائع الاستبداد] هو عبارة عن مقالات وبحوث نشرت بجرائد مصر، وبالذات «المؤيد» دون إمضاء ثم جمعت في كتاب[4].

وإذا كانت الحقيقة الموضوعية إنما تمثل الهدف الوحيد الذي يستحق الاحترام والعناء في تحصيله بالنسبة لأي باحث، فإننا

---

(١) مقدمة [أم القرى] للدكتور عبد الرحمن الكواكبي ـ الحميد ـ طبعة حلب سنة ١٩٥٧ م.

(٢) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٤) أحمد أمين [زعماء الإصلاح] ص ٢٥٣.

نجد أن أجدر الطرق بتحصيلها هنا هو طريق عبد الرحمن الكواكبي نفسه، فهو الحكم في هذا الموضوع!.

ومن عجب أن الرجل يحل لنا هذه القضية الخلافية بمستوى من البساطة تنفي إمكان حدوث أي خلاف جدي حول الوطن الذي ألف فيه كتبه، وبالذات [أم القرى] و[طبائع الاستبداد].

فإذا كان صديقه الأستاذ «كامل الغزي» يكتب أنه «بعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً، لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة [كتاب طبائع الاستبداد] الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً، بخلاف [كتاب جمعية أم القرى] فقد أطلعنا عليه مراراً»[1].

فإننا نصدقه تماماً في أن [أم القرى] قد ألفه الكواكبي بحلب، وأطلع عليه صديقه مراراً، وأن ولده «أسعد» قد قام بتبييضه له وهو في حلب[2].

كما نضيف إلى ذلك أن مقالات [طبائع الاستبداد] التي أخذ الكواكبي في نشرها «بالمؤيد» منذ وصوله إلى مصر، لا بد وأن تكون قد كتبت في حلب كذلك، لأن من يراجعها لا يمكن أن يتصور أن الكواكبي قد حررها في بضعة أيام كان ولا شك يقضيها في حط رحاله، واستقبال عارفيه، والسامعين بنضاله من

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩.

قادة المجتمع القاهري في ذلك الحين، وثواره ووجهائه.

هذه حقيقة لا ننكرها، وإن شئنا الدقة، فهذه نصف الحقيقة في هذا الموضوع، أما النصف الآخر فإننا نجده عند الكواكبي نفسه، وعند بعض الذين التصقت حياته بحياتهم في موطنه الجديد.

فهو يتحدث في تقديمه لكتابه [طبائع الاستبداد] فيقول: «فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته ومنها ما اقتبسته.. ثم كلفني بعض الأعزاء بجمع تلك الأبحاث تعمياً للفائدة، فأضفت إليها بعض زيادات، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب»[1].

ومعنى هذا أن [طبائع الاستبداد] الذي بين أيدينا اليوم، لم يمر بتعديلات فقط عند نشره كفصول في «المؤيد»، وإنما شهد تعديلات وزيادات في مرحلة ثانية عندما حوله مؤلفه إلى هيئة كتاب، ثم في مرحلة ثالثة قبل أن يموت.. وهي التعديلات

(١) مقدمة [طبائع الاستبداد] ط المكتبة التجارية، مصر، سنة ١٩٣١ م، ولقد عاد الكواكبي مرة ثالثة إلى الإضافة والتعديل لطبائع الاستبداد أثناء زيارته الثالثة لمصر، عقب إحدى رحلاته، فكانت النسخة المنقحة والمزيدة التي تضمنتها طبعتنا الثانية [لأعماله الكاملة] بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ سنة ١٩٧٥ م.

والزيادات التي تمت في القاهرة، موطن الكواكبي الجديد، والتي يقول عنها: «وجدت الكتاب قد نفد في برهة قليلة، فأحببت أن أنـظر فيه، وأزيده زيداً مما درسته فضبطه، أو ما اقتبسته وطبقته، وقد صرفت في هذا السبيل عمراً عزيزاً وعناءً غير قليل. . . »(١).

أما عن [أم القرى] فلعله قد شهد نفس الشيء، بل لقد شهد التعديل ست مرات من قبل مؤلفه، وبعضها بالتأكيد تعديلات تمت في مصر. وحجتنا في ذلك حديث صديقه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة [المنار] سنة ١٩٠٢ م، وهو يروى فيه عن الكواكبي الحديث عن هذه التعديلات، فيقول: «ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى، وكان يقول إن لهذه الجمعية أصلاً، وأنه هو توسع في السجل، ونقحه ست مرات، آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيف، أي عقيب قدومه إلى مصر. وقد قال لنا مرة: إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها»(٢).

فإذا علمنا أن الكواكبي كان يرى أن «مصر دار العلم

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٣٢.

(٢) [المنار] سنة ١٩٠٢ م، ٢٧٩ [عن د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٥٥].

والحرية»[1] و«أن النهضة العثمانية بفروعها، مسبوقة في مصر، ومقتبسة عنها»[2] علمنا ذلك الوطن الذي حدثت فيه لكتب الكواكبي تلك التعديلات والإضافات التي تحدث هو عنها، والتي تحدث عنها أصدقاؤه وزملاؤه وعارفوه.

* * *

وكما لقي الكواكبي في مصر متنفساً لأفكاره وآرائه، وزاداً جديداً لعبقريته، فلقد وجد بها كذلك مجتمعاً خصباً من المناضلين والثوار والمثقفين والعلماء. وجد فيها السادة: رشيد رضا، ومحمد كرد علي، وإبراهيم سليم النجار، وطاهري الجزائري، وعبد القادر المغربي، ورفيق العظم، وعبد الحميد الزهراوي.. وكثيرون غيرهم من الصحفيين والكتاب والمفكرين الذين تتلمذوا على يد جمال الدين الأفغاني، وشربوا من أفكاره وتعاليمه، والذين كان يلتقي بهم الكواكبي، أو بكوكبة منهم، مساء كل يوم في مقهى «سبلندد بار»، بعد أن استقر بمصر، وسكن قرب الأزهر الشريف في شارع الإمام الحسين.

ولم تكن القاهرة الشعبية، ممثلة في مجتمعها المثقف وبأحرارها العلماء، هي التي أحسنت، فقط، استقبال الكواكبي، بل إن

---

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥١، دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، طبعة بيروت ـ الثانية ـ سنة ١٩٧٥ م.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٢.

تناقضات ذلك العصر، التي كانت قائمة بين خديو مصر وبين العثمانيين قد جعلت الخديو عباس حلمي الثاني يحسن استقبال الكواكبي، فيرتب له راتباً قدره خمسون جنيهاً، وهي منحة نراها طبيعية مع السنة التي استنتها مصر على مر العصور إزاء الثوار والمناضلين اللاجئين إلى حماها، حتى لقد أصبحت عادة يجريها حكامها، إن طوعاً وإن كرهاً في بعض الأحايين، ويراها البعض مقابلاً لقيام الكواكبي بالدعوة للخديو عباس كي يتولى الخلافة العربية بدلاً من السلطان عبد الحميد.

وليس في هذا التعليل الأخير، وصحته، ما يقدح في ثورية الكواكبي وإخلاصه لما نذر له نفسه من قيم ومبادىء وأفكار.

فالخديو عباس حلمي الثاني كان يوماً من الأيام أملاً للقطاعات الأساسية في الحركة الوطنية المصرية، عندما كان ينازع الإنجليز السلطان، ولا يسير في فلك العثمانيين على النحو الذي يريدون.

والكواكبي كان يرى في أسرة محمد علي، ككثير من الحكام والأسر المالكة غير العربية، الذين «ما لبثوا أن استعربوا، وتخلقوا بأخلاق العرب، وامتزجوا بهم، وصاروا جزءاً منهم»[1].. كان يرى فيها ما هو أفضل من العثمانيين.

بل إننا نجد أن جمال الدين الأفغاني عندما يلقى الخديوي

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٤.

عباس حلمي الثاني بالآستانة، ويجتمع به تتهمه الدوائر العثمانية بالاتفاق معه على انتزاع الخلافة من آل عثمان، وتنصيبه خليفة عربياً، وجعلها «عباسية».. بل وتنسب إليه شعراً يقول فيه مخاطباً خديو مصر:

شـاد الخـلافـة في بـني الـعـبـاس
عـبـاس، لـكـن نـعـتـه الـسـفـاح
ولأنـت خـير ممـلك سـنـشـيـدهـا
بـالـبـشـر يـا عـبـاس يـا سـفـاح[1]

فإذا علمنا ذلك، لم نستغرب أن يحدث ذلك من الكواكبي، كما لم نر فيه ما يقدح في إخلاصه، إن لم يكن ذلك هو الموقف الطبيعي المتلائم مع فكره من جانب وظروف العصر الذي عاش فيه، والتيارات السياسية التي عايشها من جانب آخر.

* * *

وفي سنة ١٩٠١ م، وبعد أن أخذت أنظار مفكري العالم العربي وأحراره ترنو إلى الكواكبي وهو يطل عليهم بفكره الثائر من القاهرة، أخذ هو كذلك يتطلع إلى زيارة مواطن العرب والمسلمين، فقام برحلة شهيرة وهامة إلى بلاد المشرق زار فيها إفريقيا الشرقية والجنوبية، ودخل الحبشة، وسلطنة هرر،

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٧٢، ٧٣. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

والصومال، وتعرف بشبه الجزيرة العربية، وزار سواحل آسيا الجنوبية، والهند، وبلغ جاوه، وطاف بالسواحل الجنوبية للصين.

وكانت دراسته لهذه البلاد والمواطن تشمل إلى جانب الناس والثقافات، الاقتصاد والأرض ومعادنها، وكل ما يهم المثقف الكبير صاحب الفكر الموسوعي الشامل(١).

ولقد أودع الكواكبي نتائج رحلته هذه التي استغرقت ستة أشهر، أصول كتاب لم تمهله المنية حتى يخرجه إلى النور، وضاعت هذه الأصول والصفحات مع ما ضاع من مخطوطاته التي صادرها عملاء السلطان عبد الحميد(٢).

كما حالت المنية كذلك بينه وبين الرحلة التي كان يزمع القيام بها إلى بلاد المغرب ليستكمل، عملياً، النظرة الفاحصة العميقة للوطن الذي عاش له وناضل في سبيل تحقيق أمانيه.

(٩)

غير أن هذه الحياة الخصبة التي كانت تشع ذلك الفكر الثوري من قلب القاهرة، وترسل الحمم على ظلم آل عثمان واستبدادهم، ما كان لطغيان السلطان عبد الحميد أن يدعها تهدد

---

(١) [الغد] العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م.

(٢) من آثار فكر الكواكبي بعد هذه المرحلة دراسته عن الرق التي انفردت بها طبعتنا الثانية لأعماله الكاملة.

عرشه، وتعمل على تقويض السلطة التي يثقل بها رقاب المسلمين وعقولهم.

فاستأجر العثمانيون باستانبول أحد عملائهم، الذي حضر إلى القاهرة، ودس السم للكواكبي، فأدركته الوفاة الفجائية في مساء الخميس ٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م، فأصاب الحزن، بل الذهول كل الأحرار والمناضلين، لا في القاهرة فحسب، بل في مختلف أنحاء الوطن العربي الكبير.

وشيعت القاهرة جنازته في موكب مهيب، حضره مندوب عن الخديو عباس حلمي الثاني، حيث دفن بقرافة باب الوزير بسفح جبل المقطم على نفقة الخديو وبأمر منه. وأقام له الشيخ علي يوسف صاحب «المؤيد» مأتماً استمر ثلاثة أيام. ويومها كتب الناس في مصر على قبر الكواكبي كلمة: «الشهيد»؟!.

أما السلطان عبد الحميد فإنه قد بعث من قبله برسول ثان هو عبد القادر القباني، صاحب جريدة [ثمرات الفنون] البيروتية، ليأتي منزل الكواكبي، ويحرز أوراقه الخاصة، وفيها أصول كتابين جديدين له هما [صحائف قريش] و[العظمة لله]، ثم ينتزعها ويرسلها إلى السلطان، كما انتزع رسوله الأول بالسم حياة مفكرنا العربي الإسلامي العملاق!.

وعندما تمر الأيام، وتجدد مصر قبر الكواكبي، وتنقل رفاته إليه يكتب شاعر النيل حافظ إبراهيم [١٨٧٢ - ١٩٣٢ م] على قبره هذه الأبيات:

هنـــا رجــل الــدنيــا، هنــا مهبط التقى
هنـــا خـيـر مــظلوم، هنــا خـيـر كــاتـب
قــفــوا واقــرؤا أم الــكــتــاب وسلـموا
عـليـــه، فهـــذا الـقبـــر قـبـــر الكـــواكـبي

وعلى مر السنين والأجيال، ظل القاهريون البسطاء، ولا يزالون يقرؤون أم الكتاب على قبر الكواكبي، كما استمروا يقرؤون له [أم القرى] و[طبائع الاستبداد]، حتى أخذت تتحقق اليوم، وبعد جهاد مرير بعض أحلام الكواكبي التي صاغها في حياته أفكاره، والتي صدر بها يوماً من الأيام كتابه [طبائع الاستبداد] وعلى غلافه يقول: «إنها صيحة في واد.. أو نفحة رماد.. إن ذهبت اليوم مع الريح، فستذهب غداً بالأوتاد»؟!!..

مع العروبة

[العرب هم: أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية... وأعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية... وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية... وأحرص الأمم على احترام العهود، عزة، واحترام الذمة، إنسانية، واحترام الجوار، شهامة، وبذل المعروف، مروءة...

وهم: أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداءً، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً... فهم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية..].

الكواكبي

أغلب الذين أخطأوا في فهم موقف الكواكبي من قضية العـروبة، وخلطوا وجهـة نظره فيهـا بحديثـه عن «الدين» الإسلامي، والروابط «الروحية» التي تربط ما بين المسلمين، إنما كان المصدر الذي استقوا منه هذه الأخطاء هو كتـابه [أم القرى]؟!!.

وليس معنى هذا أن غموضاً ما يوجد بهذا الكتاب في معالجته لوجهة نظر صاحبه حول موضوع العروبة والقضية العربية، بل ربما كان هذا الكتاب أكثر وضوحاً من [طبائع الاستبداد] في بلورة وجهة نظر الكواكبي، وهي في أعلى مستوى من النضج، في هذا الباب!.

فالذنب ليس ذنب [أم القرى]، ومن ثم فلا ذنب على صاحبه، وإنما الذنب ذنب الذين لم يتعمقوا دراسته، أو هم درسوه دون أن يتعمقوا الفروق الدقيقة والحاسمة بين عدد من المصطلحات والأسماء التي اشتمل عليها الكتاب.

فالذين حاولوا أن يصوروا الكواكبي ـ في الأصل والأساس ـ

داعية خلافة إسلامية، ودولة تقوم على أساس من عقيدة الدين الإسلامي، والجنسية فيها إنما تعتمد على الإيمان بدين الإسلام، قد ظنوا أن ترديد الكواكبي لعبارات مثل «الجامعة الدينية» و«الرابطة الإسلامية» و«أهل القبلة»، وكذلك وصف البعض لكتابه هذا بأنه «لم يكتب مثله في الإصلاح الإسلامي»[1]. والحديث عن الكواكبي بأنه «رجل عظيم من رجالات الإصلاح الإسلامي»[2].

ظنوا في ذلك وأمثاله دليلاً على أن الكواكبي إنما كان داعية «دولة دينية»، وأن الغرض الأساسي من المؤتمر الذي صور مناقشاته ومحاوراته وجلساته في [أم القرى] إنما هو «تكوين جامعة إسلامية تربط بين كافة البلاد الإسلامية»[3]. فانطلقوا من ذلك إلى حكم أشد قسوة وأمعن في الخطأ عندما رأوا أن الكواكبي إنما «كان شبيهاً ببعض قدامى الكتاب السياسيين في الغرب من أمثال بيير ديبوا» [١٦٥٦ - ١٧٢٣ م] الذي دعا إلى تكوين عصبة من الدول الأوربية المسيحية للاستيلاء على الأراضي المقدسة في الشرق. ومثل «إيراسموس» الذي دعا إلى قيام اتحاد بين دول أوربا المسيحية. ومثل «سولي»، وزير هنري الرابع، ملك

---

(١) محمد رشيد رضا [المنار] سنة ١٩٠١ م ١٠٥/٣ عن د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٧٤.

(٢) محمد رشيد رضا [المنار] سنة ١٩٠٢ م ٩٥٩/٤ عن د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٧٤.

(٣) د. بطرس غالي [الكواكبي والجامعة الإسلامية] ص ٣٣.

فرنسا، الذي اصطبغت دعوته بالصبغة الدينية»[1].

بينما آثر البعض عدم التحديد والتمييز لموقف الكواكبي من هذه القضية، مكتفياً بالحديث عن سعيه إلى إقامة «جامعة إسلامية عربية قريبة مما سعى إليه المصلحون في عصره»[2]، ودون تمييز كذلك بين موقف الكواكبي ومواقف كثير من مصلحي عصره، وكيف كان موقفه الناضج من قضية العروبة إنما يمثل تطوراً هاماً في سلسلة المواقف الفكرية والنضالية التي مرت بالفكر العربي إزاء هذا الموضوع.

بينما كان مصدر خطأ البعض الآخر في هذا الموضوع آتياً من جنسيات المندوبين الذين تحدث الكواكبي عن حضورهم المؤتمر المنعقد بمكة، والمنشورة سجلات اجتماعاته وتوصياته في [أم القرى]، قرأوا أنه «لو كان الكواكبي يعني بالوحدة، وحدة الأمة العربية كما هو الحال اليوم، لكان المجتمعون ممثلين فقط لأجزاء الوطن العربي، ولكن ذلك لم يحدث، فلقد جمع الكواكبي بين دفتي كتابه ممثلين من هذه الجنسيات التي لا توجد رابطة تجمعها جميعها سوى رابطة الدين»[3].

* * *

---

(1) المرجع السابق، ص ٧٩.

(2) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ١١.

(3) د. محمد عمارة [القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب] ص ٢١، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م. [وهو الرأي الذي استنتجناه خطأ في ذلك الكتاب، والذي ننقضه وننقده الآن].

على أننا إذا فهمنا أن الحديث، أي حديث، عن «الجامعة الإسلامية» و«الرابطة الدينية» لا يمكن أن يستلزم الحديث عن «الدولة» الإسلامية الواحدة، وإنما هو يعني ذلك الإيمان بوجود روابط معينة، وخيوط مشتركة، وقسط من «الوحدة» بين الذين يدينون بدين الإسلام، لا يرقى لمستوى «الوحدة» السياسية الفورية والناضجة في «الدولة الواحدة»، ولا حتى في الامبراطورية الواحدة، وأن ذلك لا يعدو أن يكون حلقة من الحلقات التي تلي في الاتساع والعموم الحلقة القومية، القائمة على فهم أعمق لروابط العروبة، المؤسسة على سمات وقسمات لا تتوافر بين القوميات والأمم والأقليات التي تدين بالإسلام.. لو فهمنا ذلك لاستطعنا أن نقترب بعض الشيء من فهم موقف الكواكبي الحقيقي إزاء هذا الموضوع.

وأيضاً فإننا لو فهمنا أن الكواكبي، شأنه شأن الذين استخدموا لفظ «الأمة» في عصره، وقبل عصره، من الكتاب العرب والمسلمين، بل وشأن استخدام القرآن الكريم، كتاب العرب الأول، لهذا اللفظ، إنما كان يسوقه لمعانٍ متفاوتة وإن تكن مشتركة، وللدلالة على أشياء بينها وبين بعضها البعض عموم وخصوص، وليست جميعها بمعنى واحد تماماً، ومن كل الوجوه.

فكلمة «أمة» عندما تستخدم في الأدب السياسي القومي الحديث، إنما تعني الجماعة البشرية المستكملة لخصائص:

١ ـ التكوين التاريخي الواحد.
٢ ـ واللغة المشتركة.
٣ ـ والأرض المشتركة.
٤ ـ والحياة الاقتصادية المشتركة.
٥ ـ والتكوين النفسي المشترك، المعبر عنه في الثقافة المشتركة.

بينما كانت تستخدم قديماً بمعنى «الجماعة»، أية جماعة من الناس..

فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[١] إنما يعني خير جماعة، وهو يقصد المسلمين العرب الذين خاطبتهم الآية في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، لا العرب جميعاً لأن منهم من كان حتى ذلك الحين مشركاً بالله غير سالك سبيل الإسلام.

وعندما يتحدث عن مجموعة من الذين وردوا بئر ماء في [مدين] يسقون ماشيتهم عندما نزل بهم نبي بني إسرائيل موسى عليه السلام، فيقول: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾[٢] فهو يعني جماعة، ليست لها الاشتراطات ولا القسمات اللازمة للأمة الحديثة بالمعنى القومي الذي نستخدم فيه هذا اللفظ الآن.

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) القصص: ٢٣.

كما أنه عندما يوصى المسلمين فيقول لهم: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[1] فهو إنما يعني الجماعة، التي قد تكون هيئة أو حزباً أو رابطة أو مجلساً نيابياً، أو غير ذلك مما يتلاءم مع ظروف التطور للمجتمع الذي يعيش فيه المسلمون.

بل إننا نجد الكواكبي يستخدم صراحة كلمة أمة بهذا المعنى، عندما يفسر هذه الآية، عند حديثه عن المجالس النيابية لدى بعض الأمم فيقول: «هذه الأمم الموفقة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية السياسية، وذلك ينطبق تماماً على ما أمر به القرآن الكريم في آية ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وفي كمالة هذه الآية، وهي ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ من التبجيل ما يحمل نفوس الأبرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها، الممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه!»[2].

على أن هذا الاستخدام العام والشائع والتقليدي لهذه الكلمة، لم يكن هو الاستخدام الوحيد الذي استخدمها به عبد الرحمن الكواكبي، فإننا نجده يعود ثانية ليستخدم كلمة «أمة»

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٤٦.

بنفس المعنى الحديث الذي يستخدمها فيه الأدب السياسي القومي في أيامنا هذه، وذلك عندما يتساءل: «ما هي الأمة، أي الشعب؟.. هل هي ركام مخلوقات نامية؟.. أو جمعية عبيد لمالك متغلب؟.. **أم هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة؟**»[1].

وهو عندما يستخدمها هذا الاستخدام المحدد والحديث، لا يخلط بينها وبين الجماعة الدينية، والجامعة الإسلامية، لأنه لا يضع العقيدة الدينية مقوماً من مقوماتها، بل يشير إلى روابط «الجنس، واللغة، والوطن، والحقوق المشتركة».

وبهذا الفهم الضروري لوجهة نظر الكواكبي حيال هذه القضية يزول سبب هام من أسباب الخلط والتعمية التي ألقت ظلالاً كثيرة على موقفه من العروبة عندما تناوله بعض الدارسين.

أما حديث مؤتمر [أم القرى]، وعدد المندوبين الذين حضروه، وجنسياتهم التي مثلوها فيه، فإن الخلط وسوء الفهم قد أصاب كذلك وعي البعض لما عناه الكواكبي من وراء هذا الموضوع.

حقيقة أن المندوبين الذين تخيل الكواكبي حضورهم هذا المؤتمر هم:

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨.

الاسم المستعار للمندوب	المدينة التي جاء منها	الوطن الذي يمثل المسلمين فيه
١ ـ السيد الفراتي	حلب	حلب
٢ ـ الفاضل الشامي	دمشق	الشام
٣ ـ البليغ القدسي	القدس	فلسطين
٤ ـ الكامل الإسكندري	الإسكندرية	مصر
٥ ـ العلامة المصري	القاهرة	مصر
٦ ـ المحدث اليمني	صنعاء	اليمن
٧ ـ الحافظ البصري	البصرة	العراق
٨ ـ العالم النجدي	حائل	نجد
٩ ـ المحقق المدني	المدينة	المدينة
١٠ ـ الأستاذ المكي	مكة	مكة
١١ ـ الحكيم التونسي	تونس	تونس
١٢ ـ المرشد الفاسي	فاس	مراكش
١٣ ـ السعيد الإنكليزي	ليفربول	انجلترا
١٤ ـ المولى الرومي	القسطنطينية	تركيا
١٥ ـ الرياضي الكردي	كردستان	كردستان
١٦ ـ المجتهد التبريزي	تبريز	فارس
١٧ ـ العارف التاتاري	بغجة سراي	بلاد التاتار الشمالية
١٨ ـ الخطيب القازاني	قازان	كازاكستان
١٩ ـ المدقق التركي	كشغر	الموطن الأصلي للأتراك بوسط آسيا

الاسم المستعار للمندوب	المدينة التي جاء منها	الوطن الذي يمثل المسلمين فيه
٢٠ ـ الفقيه الأفغاني	كابل	أفغانستان
٢١ ـ الصاحب الهندي	دلهي	الهند
٢٢ ـ الشيخ السندي	كلكتا	الهند
٢٣ ـ الإمام الصيني	بكين	الصين

وذلك على الترتيب الذي أوردهم به الكواكبي في كتابه.

فإذا علمنا أن هذا الترتيب إنما قدم فيه الكواكبي المندوبين الذين يمثلون أجزاء العالم العربي من المحيط إلى الخليج على المندوبين الذين يمثلون شعوباً مسلمة غير عربية، أو أقليات مسلمة في بلاد غير إسلامية، أدركنا مكان فكرة العروبة في هذا الموضوع.

فالحضور ثلاثة وعشرون مندوباً، إذا أضيف إليهم المندوب «البيروتي»، الذي تغيب لعذر مقبول، صاروا أربعة وعشرين عضواً، العرب منهم ثلاثة عشر عضواً.

ولكننا إذا أضفنا إلى ذلك أن الكواكبي إنما أراد إحضار المندوبين غير «العرب العثمانيين» في مؤتمره هذا «كمراقبين» فقط، حسب تعبيرنا السياسي الحديث، أدركنا أن هذا المؤتمر إنما

أراد صاحبه تجسيد الوحدة القائمة على المصالح القومية المشتركة بين العرب الذين يحتل العثمانيون بلادهم، وإنه إنما أراد بذلك أن يشير إلى وحدة المصلحة بين كل الذين تقتضيهم عروبتهم الثورة على الأتراك العثمانيين..

فهو يتحدث عن المعيار الذي تكونت على أساسه «الجمعية»، فيقول ضمن ما يقول: «وفي أثناء انتظارنا منتصف الشهر، سعيّت مع بعض الإخوان الوافدين في تحري وتخير إثني عشر عضواً أيضاً، **لأجل إضافتهم للجمعية** وهم من: مراكش، وتونس، والقسطنطينية، وبغجة سراي، وتفليس، وتبريز، وكابل، وكشغر، وقازان، وبكين، ودلهي، وكلكتا، وليفربول»[1].

فهؤلاء الأعضاء الذين سعى الكواكبي وبعض إخوانه في «إضافتهم للجمعية» جميعهم مسلمون غير عرب، والعضوان العربيان فيهم هما مندوبا تونس ومراكش، ولم يكن هذان القطران يومها تحت الحكم العثماني، لأن الأول كان مستعمرة فرنسية، والثاني كان مستقلاً استقلالاً مشوباً بالنفوذ الفرنسي الذي كان يزحف عليه منذ ذلك الحين.

وذلك بخلاف مصر، التي رغم احتلال الإنجليز لها، فإن التبعية «الرسمية» للدولة العثمانية قد استمرت إلى سنة

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٢٣٤، ٢٣٥.

١٩١٤ م، علاوة على كونها في ذلك الحين مركز الأحرار الذين يقاومون طغيان الأتراك.

فهو مؤتمر للعرب العثمانيين إذن، وليس مؤتمراً دينياً، وهو تعبير عن حركة سياسية كان يشارك الكواكبي التفكير فيها، والسعي لبلوغ غاياتها كثير من المفكرين والثوار العرب في مصر وبلاد المشرق العربي، المسلمون منهم وغير المسلمين.

ودليل آخر على ذلك، يتمثل في البلاد والمدن التي زارها الكواكبي داعياً لمؤتمره هذا ومحضراً له، فهو يتحدث كيف سلك «الطريق البحري من اسكندرون، معرجاً على بيروت، فدمشق، ثم يافا فالقدس. ثم جئت الإسكندرية، فمصر. ثم من السويس يممت الحديدة، فصنعاء، فعدن. ومنها قصدت عمان، فالكويت. ومنها رجعت إلى البصرة. ومنها إلى حائل[1]، إلى المدينة على منورها أفضل الصلاة والسلام، على مكة المكرمة»[2].

وكلها مدن وحواضر تمثل مراكز العرب العثمانيين وولاياتهم.

وهو قبل طوافه بهذه المدن والأماكن يتحدث قائلاً: «فأتيت

---

(١) كانت قاعدة إمارة نجد تحت حكم ابن الرشيد قبل قيام المملكة السعودية.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ٢٣٤.

بلدة لا أسميها، وما أطلت المقام فيها، حيث وجدتها كما وصف أختها أبو الطيب بقوله:

ولم أر مثل جيراني ومثلي
لمثلي عند مثلهمو مقام
بأرض ما اشتهيت رأيت فيها
فليس يفوتها الأكرام»[1]

فإذا كان بدء الرحلة عقب هذه البلدة التي لا يسميها الكواكبي كراهة لها واحتقاراً لأهلها، إنما كان بالطريق البحري من «اسكندرون»، فهي ولا شك عاصمة الأتراك العثمانيين؟؟!.

* * *

وإذا كان هذا القدر كافياً في دفع الشبهات عن «النزعة العربية الخالصة والناضجة» في فكر الكواكبي ونضاله السياسي، وفي دحض «الأدلة السلبية» التي يواجهها الباحث في هذا الموضوع، فإن تحت أيدينا، ولله الحمد، العديد من «الأدلة الإيجابية»، التي لا تدع مجالاً للشك في أن فكرة العروبة، بمعناها القومي الحديث، قد بلغت عند الكواكبي حداً من النضج ودرجة من الوضوح تستحق إلى جانب الإبراز، الفخر والاعتزاز.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٤.

فالموقف من الأتراك العثمانيين، وكان يومئذ معياراً أساسياً تفترق عنده طرق الدعاة والمفكرين والمناضلين: من يريد منهم إقامة دولة تعتمد أساساً على الرابطة الدينية، ومن يتزعون في السياسة إلى رحاب التفكير القومي أولاً وقبل كل شيء.. هذا «الموقف الكواكبي» من هذا المعيار لا يدع مجالاً للشك في انحياز الرجل إلى معسكر العروبة القومي، وخلعه ذلك الرداء الذي ارتداه دعاة الخلافة الإسلامية القائمة أساساً على رابطة الدين، على النحو الذي يقيم تناقضاً بين العروبة القومية والإسلام الدين!.

وإذا كانت أوضاع المجتمع المصري في عصر الكواكبي قد شهدت تياراً قومياً يناهض الخلافة العثمانية، دون أن يستبدل العروبة والقومية العربية بالرابطة العثمانية، وهو التيار الذي تمثل حينئذ في «حزب الأمة» تحت قيادة مفكره وفيلسوفه المرحوم الأستاذ أحمد لطفي السيد [١٨٧٢ - ١٩٦٣م] فلقد كان السر في ذلك هو اكتمال خصائص استقلالية، ونمو مميزات خاصة للمجتمع المصري تتيح له الاستقلال عن باقي أجزاء العالم العربي دون أن يعاني قلقاً أو اضطراراً إلى الدخول في نوع من الوحدة أو الاتحاد، كشرط للحياة والبقاء.

أما بلاد المشرق العربي، التي جزأها العثمانيون إلى ولايات صغيرة، وأجزاء لا تملك مقومات الكيانات السياسية - «الدولة» - الصالحة للاستقلال، والتي كانت ظروفها

الموضوعية هي الأساس الذي نبتت فيه أفكار الكواكبي، وهي التربة التي أثمرت اراءه في العروبة والقومية، فلم يكن هناك بديل عند مفكر تتراءى هذه الكيانات في مخيلته عندما يفكر في المستقبل، للخلافة الإسلامية غير العربية، سوى الخلافة العربية، والدولة العربية القائمة على أساس مفهوم حديث وناضج للعروبة والقومية العربية.

وإذا كان الكواكبي قد رفض طريق «التعايش» مع الأتراك، فإنه بالضرورة قد اختار العروبة طريقاً وحيداً ليس له بديل.

* * *

ولم يكن الرجل في رفضه للتعايش مع الأتراك العثمانيين، يصدر عن تعصب ظالم، ولا عن احتقار للجنس التركي، وإنما كان، كشأن المفكر الموضوعي، يستقرىء الواقع ويستخلص منه المعطيات والقوانين التي جربت مئات السنين في حقل التطبيق والاختبار.

فهو يتحدث عن «أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية: . . إلى أن توفق لاجتذابهم إلى لغتها، فأخلاقها، فجنسيتها، كما فعل الأمويون والعباسيون والموحدون. . . وكما فعل جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول إسلامية، كآل بويه، والسلجوقيين، والأيوبيين، والغوريين، والأمراء الجراكسة، وآل محمد علي، فإنهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب

وامتزجوا بهم، وصاروا جزءاً منهم. وكذلك المغول التاتار صاروا فرساً وهنوداً»[1].

فهو هنا يقدم مفهوماً ليس هناك ما هو أنضج منه في فهم قضية العروبة، والتمييز بينها وبين فكرة الخلافة الإسلامية، **فالانصهار إنما يكون على أساس «اللغة والأخلاق والجنسية». وهو إنما يتم «بالاستعراب والتخلق بأخلاق العرب والامتزاج بهم والتحول إلى جزء منهم»، وليس بسبب الأصل العرقي، كما أن العقيدة الدينية الواحدة ليست صالحة لأن تكون بديلاً ـ فضلاً نقيضاً ـ له في هذا الباب.**

وليس أدل على ذلك من اعتباره أن صيرورة «المغول التاتار» المسلمين فرساً، بل وهنوداً، إنما هو عين الحكمة التي تفقدها الكواكبي في التاريخ وفي حضارات هذه الأسر والأجناس ودولها فلم يفتقدها إلا عند الأتراك العثمانيين، عندما وجد أنه «**لم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك، أي العثمانيين. فإنهم بالعكس يفتخرون بمحافظتهم على غيرية رعاياهم لهم، فلم يسعوا باستتراكهم، كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا**»[2].

ولا يرى الكواكبي في حرص الأتراك على هذه «الغيرية» ميزة لهم تعكس أصالتهم وصلابة عودهم القومي والحضاري، بقدر

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٤.

ما هو عداء للعرب قامت له أسوار وحدود لا يمكن تخطيها بحال من الأحوال «فالمتأخرون منهم قبلوا أن يتفرنسوا أو يتألمنوا، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب!»[1].

ثم يأخذ الكواكبي في استقراء بعض ألفاظ اللغة التركية، وقطاع من قطاعات ثروتها اللفظية، ليستخرج منها الأدلة التي لا تنقض على هذا البغض الشديد الذي يكنه الأتراك للعرب، وهي اللغة التي تحتوي، ضمن ما تحتوي على هذه الألفاظ السابة الشاتمة القادحة في العرب والعروبة «والتي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال في حق العرب!»[2].

التعبير التركي	معناه العربي	المنطقة العربية التي يطلق على أهلها..
ديلنجي عرب	العرب الشحاذين	كل أجزاء العالم العربي
كور فلاح	الفلاحين الأجلاف	مصر
عرب جنكنه سي	نَوَر العرب	مصر
قبطي عرب	النَّوَر المصريين	مصر
ته شامك شكري ونه	دع الشام وسكرياتها	سوريا

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٤.

التعبير التركي	معناه العربي	المنطقة العربية التي يطلق على أهلها..
عربك يوزي	ولا تر وجوه العرب	
عرب	الرقيق، الحيوان الأسود	كل أجزاء العالم العربي
بس عرب	عربي قذر	كل أجزاء العالم العربي
عرب عقلي	عقل عربي، أي صغير	كل أجزاء العالم العربي
عرب طبيعتي	ذوق عربي، أي فاسد	كل أجزاء العالم العربي
عرب جكه سي	حنك عربي، أي كثير الهذر	كل أجزاء العالم العربي
يوني يبارسه م عرب أوله يم	إن فعلت هذا أكون من العرب	كل أجزاء العالم العربي
نرده عرب نرده طنبور	أين العرب من الطنبور؟	كل أجزاء العالم العربي

وعندما يورد الكواكبي هذه التعبيرات القوية الدلالة على بغض الأتراك للعرب، والقاطعة باستحالة التعايش معهم يبلغ به الانفعال الدرجة المطلوبة من القومي الغيور، فيقول: إن العرب «لا يقابلونهم على كل ذلك إلا بكلمتين، الأولى: هي قولهم

فيهم: «ثلاث خلقن للجور والفساد: القمل، والترك، والجراد». والكلمة الثانية: تسميتهم بالأروام، كناية عن الريبة في إسلاميتهم، وسبب الريبة أن الأتراك لم يخدموا الإسلامية بغير إقامة بعض جوامع لولا حظ نفوس ملوكهم بذكر أسمائهم على منابرها لم تقم؟!»[1].

أما الدليل على أن هذا الموقف الشديد العداء من الكواكبي للأتراك العثمانيين لم يكن وليد تعصب جنسي ظالم، ولا ثمرة من ثمرات ضيق الأفق القومي، فهو ذلك الاحترام الذي كان يكنه لأحرار الأتراك، بل للمناضلين الأجانب عموماً، لأنه كان يرى «أنه يوجد في المتفرنجة أفراد غيورون، كالراسخين من أحرار الأتراك، الملتهبين غيرة تقتضي احترام مزيتهم»[2].

بل ويمضي الكواكبي في موقفه العربي القومي المعادي للأتراك، فلا يرى للعقيدة الدينية الإسلامية قواماً إلا بقيادة العرب لها، وانحصار المسؤولية عنها في أبنائهم وشعبهم، وذلك تعبيراً من الكواكبي عن إدراكه العميق للملامح القومية العربية التي يتميز بها الإسلام في محيط الوطن العربي، وارتباط أحداثه وذكرياته وانتصاراته بذكريات انتصارات العرب كأمة وشعب يقدم في انتصاراته ومعاركه بزاد روحي من هذا الدين، ويحتمي في محنه وانتكاساته بحصون منيعة منه أيضاً.

---

(١) المصدرالسابق، ص ٣٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣١.

بل إن إيمان الكواكبي بما يمكن أن نسميه «النزعة السلفية المستنيرة» في التفكير الديني، ونزوعه إلى العودة إلى المنابع الأولى للإسلام، وتخليصه من الشوائب والزوائد والإضافات التي ساهم فيها الأتراك العثمانيون بأوفر نصيب، وإحساسه بأن ذلك سيقدم إلى الناس ديناً ملائماً لبساطة البيئة التي نشأ فيها الإسلام في شبه الجزيرة العربية ـ وهي دعوة واعية من الكواكبي كذلك إلى لفت الأنظار لهذه الحركة السلفية التي كانت تضطرب بها أحشاء شبه الجزيرة يومئذ، والتي تجلت في إعطاء الكواكبي في [أم القرى] الحيز الأكبر لآراء «العالم النجدي»، واختيار «الأستاذ المكي» لرئاسة المؤتمر ـ.

نزوعاً من الكواكبي نحو كل هذه الأشياء، نراه يحسم تردد البعض حول القيادة البشرية التي يمكن أن تعيد تجديد الدين، ولا يرى لها مكاناً غير شبه الجزيرة وأهلها، أي العرب، فيقول: **«إن الجمعية، بعد البحث الدقيق والنظر العميق في أحوال وخصال جميع الأقوام المسلمين الموجودين، وخصائص مواقعهم، والظروف المحيطة بهم، واستعداداتهم، وجدت أن لجزيرة العرب ولأهلها، بالنظر إلى السياسة الدينية مجموعة خصائص وخصال لم تتوفر في غيرهم، بناء عليه رأت الجمعية أن حفظ الحياة الدينية متعينة عليهم، لا يقوم فيها مقامهم غيرهم مطلقاً، وأن انتظار ذلك من غيرهم عبث محض!»**[(١)].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٥.

فإذا أضاف الكواكبي إلى ذلك قوله: إن «عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية، لظهور الدين فيهم، وكذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى إفريقيا»[1] أدركنا أن الكواكبي يدعو إلى عقد لواء الدعوة للإسلام وتجديده، للعرب، وانتزاع هذه الراية من الأتراك بما لا يدع مجالاً للشك أو التهادن في هذا الموضوع.

بل هو لا يكتفي بسلب هذه المهمة من الأتراك، وتعريتهم عن نيل هذا الشرف، بل يتقدم خطوة هامة إلى الأمام ليؤكد أن الأتراك بناة مملكة سياسية، وأن استخدامهم لرايات الإسلام وأعلامه لا يعدو أن يكون نوعاً من التجارة بالدين، فهذا هو «السلطان محمد الفاتح [١٤٢٩ - ١٤٨١م] وهو أفضل آل عثمان، قد قدم الملك على الدين، فاتفق سراً مع (فرديناند) [١٤٥٢ - ١٥٠٤ م] ملك (الأراغون) الإسبانيولي، ثم مع زوجته (إيزابيلا) [١٤٥١ - ١٥٠٤ م] على تمكينهما من إزالة ملك بني الأحمر، آخر الدول العربية في الأندلس، ورضي بالقتل العام، والإكراه على التنصر بالإحراق، وضياع خمسة عشر مليوناً من المسلمين بإعانتها بإشغاله أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين، وقد فعل ذلك بمقابلة ما قامت له به روما من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمته مكدونيا ثم القسطنطينية..

وهذا السلطان سليم [١٤٦٧ - ١٥٢٠ م] بينما كان يقتل العرب

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٦.

في المشرق كان الإسبانيون يحرقون بقيتهم في الأندلس؟!»[1].

وعلاوة على هذا الحسم والوضوح الذي يتناول به الكواكبي هذه القضية، نراه يتكشف لنا عن كاتب واع بأحداث السياسة الدولية، ومدرك إدراكاً جيداً لأسرارها وارتباطاتها، والعلاقات المتشابكة والجدلية والنامية التي تربط بين أطرافها، والأسس الموضوعية التي تقوم عليها أمثال هذه الارتباطات، وهي ميزة قلما يدركها الذين لا ينظرون لمثل هذه القضايا بنفس المنظار الموضوعي الذي نظر به الكواكبي، والمؤسس على أصول من الحقائق المرتبطة بالفكر العربي القومي السليم.

* * *

وأساس آخر من الأسس العبقرية التي أراد الكواكبي تقديمها للناس كي يرسوا عليها علاقاتهم بالكيان السياسي الذي يمنحونه الولاء والمحبة والإخلاص، وهو ذلك الفكر الناضج الذي وفق به ما بين الوطنية والقومية وما بين الإنسانية، فهو ضد الذين يضعون الإنسانية كنقيض للقومية والوطنية، وليس مع الذين

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٢. [وتعليقاً على مثل هذه الآراء يقول الشيخ رشيد رضا: «لكن في القسم السياسي ـ من [أم القرى] ـ كلاماً لبعض أعضاء الجمعية في الدولة العلية ـ أيدها الله تعالى ـ نحذفه عند الوصول إليه، لأنه يؤلم أكثر الناس، ولا ينبغي أن يعرفه إلا الخواص؟!» [المنار] سنة ١٩٠٢ م ٤/٩٥٩ وما تليها] عن: د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٥٥، وهو يوضح الفارق بين الكواكبي وكثير من معاصريه.

يرون في عموم العقيدة، أية عقيدة، تخطياً وإلغاء لخصوص الوطن والقومية، فهو يتحدث عن الشباب «الذين تعقد الأمة آمالها بأحلامهم. . وتتعلق الأوطان بحبال همتهم. . الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من ترابه. الذين يعشقون الإنسانية، ويعلمون أن البشرية هي العلم، والبهيمية هي الجهالة، الذين يعتبرون أن خير الناس أنفعهم للناس!»[1].

* * *

فإذا ما حام الكواكبي حول موضوع التراث الفكري العربي الإسلامي، وبالذات في نطاق فن السياسة الذي كرس له كتابه [طبائع الاستبداد] نراه لا ينزع إلى التعميم في وصفه لأعلام هذا التراث، كما لم ينزع إلى التعميم كذلك عندما تناول «استعراب» الدول غير العربية التي حكمت أجزاء من وطننا العربي.

فهو يتحدث عن أن القرون المتوسطة لا تؤثر فيها «مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الإسلام، فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي والطوسي والغزالي والعلائي، وهي طريقة الفرس. وممزوجاً بالأدب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب. وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة»[2].

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٣. [وهو يشير هنا، بشكل غير مباشر، إلى أن التراث العربي إنما تأثر وورث الكثير عن الحضارات السابقة دون أن يخرجه ذلك عن نطاقه الحضاري المتميز].

ثم يمضي إلى العصر الحديث فيقول: «وأما العرب المحدثون (الذين ألفوا في السياسة) فقليلون ومقلون، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم: رفاعة بك[1]، وخير الدين التونسي[2]، وأحمد فارس[3]، وسليم البستاني[4]، والمبعوث المدني[5]».

* * *

بل إن الكواكبي ليصل إلى ذروة الحسم والوضوح في معالجة هذه القضية، قضية العلاقة بين «الدولة» ونظام الحكم وبين «العقيدة الدينية»، عندما يعلن في جرأة، يحسده عليها معاصرونا، فضلاً عن معاصريه، ضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية.

والأهم في نظرنا، ونحن نعالج موقف الكواكبي في هذه القضية، هو أنه ليس كغيره ممن نادوا بذلك متأثرين بالنزعات الفكرية الأوربية الوافدة والنظريات العلمية الحديثة، أو مقلدين لما جرت به الأمور في أوربا من تنحية الكنيسة وسلطانها عن الهيمنة على مقدرات أمور السياسة والحياة، وإنما هو يصدر في ذلك عن رؤيته هو وفهمه للدين الإسلامي ذاته، وبمفهوم

---

(١) أي رفاعة رافع الطهطاوي (١٩٠١ ـ ١٨٧٣ م).

(٢) خير الدين باشا التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٧٩ م).

(٣) أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧ م).

(٤) سليم البستاني (١٨٤٨ ـ ١٨٨٤ م).

(٥) [الأعمال الكاملة] ص ١٣٤.

سياسي ناضج يستخدمه في فهم الدين ومعالجة علاقاته بالحياة.

فهو بعد أن يرى «أن إدارة الدين، وإدارة الملك لم تتحدا في الإسلام تماماً إلا في عهود الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز، فقط، رضي الله عنهم»[1] يتقدم ليرى أنه «لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة الدين»[2].

والكواكبي يفرق هنا، وفي كثير من الأماكن، بين «الإسلام» وبين «الإسلامية»، فالأول هو الدين، والثانية هي نظام الحكم الذي يطبقه المسلمون في حياتهم، والفصل بين الإثنين هو ما يدعو إليه الكواكبي. ونؤكد على أن هذه كانت وجهة نظره مهما بدا ذلك غريباً بالنسبة لمعظم الذين درسوه.

فهو يتحدث عن الأمم التي تحررت وامتلكت مفاتيح حاضرها ومستقبلها واستراحت من أخطبوط النزاعات الطائفية، وتجارة المتجرين بالأديان، والمستغلين لروعة الدين في إحكام قبضنهم على رقاب المسلمين، فيقول: «هذه أمم أوستريا، وأمريكا، قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي -[أي القومي]- دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري. فما بالنا نحن لا نفتكر في أن

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

نتبع إحدى تلك الطرق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعجام[1] والأجانب[2]: دعونا يا هؤلاء، نحن ندير شأننا، ونتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالأخاء، ونتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء. دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: (فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء)[3]. . .».

ولم يكن الكواكبي يرى محاولات استغلال الدين آتية فقط من قبل سلاطين آل عثمان، تحت رايات الإسلام، بل وآتية كذلك من أوربا تحت أعلام تحمل كذباً وبهتاناً صورة الصليب، فيتقدم في عمق ليسائل العرب المسيحيين بقوله: «أليس مطلق العربي أخف استحقاراً لأخيه من الغربي؟. . هذا الغربي قد أصبح مادياً لا دين له غير الكسب. فما تظاهره مع بعضنا بالأخاء الديني إلا مخادعة وكذباً»[4].

فنحن جميعاً، مسلمين ومسيحيين: عرب. ونحن

---

(١) يقصد الأتراك العثمانيين.

(٢) يقصد المستعمرين الأوربيين الذين كانوا يثيرون الطائفية بين المسيحيين العرب والمسلمين كطريق لنفوذهم الوافد واستعمارهم.

(٣) [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٤) [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٨.

والأوروبيين: عرب وغرب، حتى ولو كان بعضنا مثلهم مسيحيون.

فإذا أضفنا إلى ذلك التعريف الذي سبق أن قدمناه للأمة والشعب حيث يرى الكواكبي خصائصها متمثلة في «جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة»[1] بلغنا مستوى من راحة الضمير إزاء تقرير هذه الحقيقة، لا حاجة بعده إلى المزيد من البحث والاستقصاء.

على أننا نريد أن نضيف هنا، وخاصة للذين لا يعرفون هذه الحقيقة من حقائق فكر الكواكبي، أن هذا الجانب من فكر الرجل لم يغب عن عدد غير قليل من معاصريه.. فالأستاذ محمد كرد علي [١٨٧٦ - ١٩٥٣ م] يقول عنه: إنه «مع تمسكه بالإسلام لم يكن متعصباً، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة»[2].

كما يكتب عنه صديقه الشيخ محمد رشيد رضا فيقول: «وقد كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح، حتى أن صاحب الدولة «مختار باشا الغازي» اتهمنا بتأليف كتاب [أم القرى] عندما اطلع عليه. وربما نشير إلى المسائل التي خالفنا فيها الفقيد، في هامش

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٢١٨.

(٢) [الهلال] سنة ١٩٠٢ م ١٩٦٦/٢٩ [عن د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٤].

الكتاب عند طبعه، وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية»[1].

فهل بعد ذلك شك في أن الكواكبي إنما كان صاحب وجهة نظر في العروبة، والأفكار القومية، بلغت من النضج والوضوح حداً لم تصل إليه بعد أفكار كثير من الذين يعيشون بيننا الآن؟! والذين لا يزالون يضعون العروبة نقيضاً للإسلام، أو يرون في العقيدة الدينية تخطياً وإلغاءً للروابط القومية؟! أو يخبطون في العلاقة بين كل هذه الأشياء خبط عشواء؟!.

أما الكواكبي، فلقد وعى قضيته وعبر عنها أجود تعبير.

* * *

بل إننا نجد أن قيمة حديث الكواكبي عن العروبة، وخطر نظريته في القومية العربية، لا يمكن أن تكفي فيها تلك الصفحات التي قدمناها والتي عرضت وجهة نظره في هذا الميدان، وأن ذلك لا بد وأن يستكمل بالإشارة إلى مكان هذا البناء الفكري المتكامل في العروبة من الأفكار التي كانت سائدة قبله، وفي زمانه، بل وبعد وفاته كذلك بعدد كبير من السنين.. لأن ذلك هو الفيصل بين المفكر الذي يبدع ويضيف الجديد لفكر

(١) [المنار] سنة ١٩٠٢ م ٥/٢٧٩ (عن د. سامي الدهان، عبد الرحمن الكواكبي ص ٥٦).

أمته وشعبه وبين الذي يجيد العرض والصياغة، ويحسن الترديد والتزويق.

ونحن نعتقد أن نظرية الكواكبي في العروبة والقومية، إنما تقف في مقدمة الأبنية الفكرية المتكاملة التي تعتبر من تجديداته وابداعاته، ومن الإضافات التي قدمها، والتي احتلت مكاناً شبه شاغر قبل أن يشهد تراثنا فكر الكواكبي في هذا الموضوع.

ذلك لأن الفكر العربي الناضج في الميدان القومي، وبصدد الحديث عن انصهار العرب وتقاربهم، وتكوينهم جماعة بشرية واحدة، كان قد وقف أو توقف عند المفكر العربي الجاحظ (٧٧٥ ـ ٨٦٨ م)، ذلك العملاق الذي «جمع في عقله كل ثقافة عصره وقل أن يكون له في ذلك نظير»[1] والذي أشار إلى تقارب الجماعات المستظلة برايات الحكم العربي الإسلامي، وانصهارها القومي، كما تقاربت العرب قديماً وانصهرت رغم انحدارها من أصول قبلية مختلفة، وذلك عندما «استووا في التربية، وفي اللغة، والشمائل، والهمة، والأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية... فسبكوا سبكاً واحداً، وأفرغوا إفراغاً واحداً، وكان القالب واحداً.. تشابهت الأجزاء. وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى.. وإن هذه المعاني قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة..».

---

(١) أحمد أمين [ظهر الإسلام] جـ ٣ ص ١٢٨

وعندما تحدث عن «أن المشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكل من جهة الرحم»[1].

ولقد تبع توقف هذا الفكر القومي العربي الناضج، أو بالأحرى أحدث هذا التوقف، توالي حكم الأسر غير العربية للعرب، ثم ذلك النزيف الذي أحدثته في العالم العربي آثار الحروب الصليبية، ثم طول عهد حكم المماليك والأتراك.

* * *

وعندما أخذت مصر، قلب الوطن العربي النابض، تخلع عنها رداء النكسة هذا، مع دخولها أعتاب القرن التاسع عشر والعصر الحديث، وشهدت أرض المشرق العربي جيشها الوطني يجلي الأتراك العثمانيين، ويعيق نفوذ الاستعمار الأوربي الزاحف في ركابهم، لم تلبث هذه الصحوة إن أُخمدت بذلك الحلف الذي جمع الأقطاع العربي العشائري في الشام، إلى دولة الأقطاع والشعوذة في الآستانة، تحت قيادة الاستعمار الإنجليزي وجيوشه، والذي أثمر هزيمة الجيش المصري وانسحابه من بلاد المشرق العربي في سنة ١٨٤١ م، بعد أن وحد مصر مع أغلب أجزاء هذا المناطق العربية نحواً من عشر سنوات.

وفي أعقاب هذه النكسة العربية، وبعد ثلاثة عشر عاماً من

(١) من رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان [رسائل الجاحظ] جـ١ ص ١١ - ١٤، ط القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

هذا الانسحاب، كان ميلاد عبد الرحمن الكواكبي.

وعندما كان مفكرنا الكبير يطل على الحياة العامة، ويكتب للناس في صحف حلب، ويمد بصره وفكره إلى مصر، كانت عوامل النكسة وآثارها لا تزال تخيم على القطاعات الرسمية والقائدة في القاهرة، وكانت مصر تشهد تجاه العروبة، وجهة النظر التي جسدتها تلك العبارة التي قالها الخديوي إسماعيل عن «أن مصر قطعة من أوربا!».

ولا أدل على أن هذه العبارة إنما كانت إطاراً فكرياً عاشت فيه وله مصر الرسمية، وقطاع هام من ساستها وسياستها وثقافتها ومثقفيها، ردحاً طويلاً من الزمن، من ذلك التعليق الذي يقول: إنه «لا ينبغي أن يفهم المصري من الكلمة التي قالها إسماعيل، وجعل بها مصر جزءاً من أوربا، أنها قد كانت فناً من فنون التمدح، أو لوناً من ألوان المفاخرة، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها!»[1].

وهو الإطار الفكري الذي عاشت فيه مصر عندما كان الكواكبي يمد إليها عقله وبصره وآماله، وعندما أخذ يطل على الحياة العامة متأثراً بها ومؤثراً فيها.

* * *

---

(١) د. طه حسين، مقدمة [مستقبل الثقافة في مصر]، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧م.

كما أن الهيمنة العقلية والفكرية، وسيل الخرافات والشعوذة اللذين أثقلت بهما الامبراطورية العثمانية عقول العرب وقلوبهم، قد جعلت الكثير من الناس، والعديد من المفكرين والساسة، بل التيارات السياسية والفكرية، ترى في فكرة العروبة ـ وهي لا بد أن تعادي السلطان العثماني ـ عملاً وفكراً يتنافى مع دين الإسلام، ونشاطاً موجهاً ضد الخلافة الإسلامية، ونقضاً لإجماع الأمة، وتحطيماً لرابطة الدين!.

ولا أدل على ذلك من حرص زعيم شجاع كأحمد عرابي [١٨٤١ ـ ١٩١١ م] على أن ينفي عن نفسه والثورة التي قادها أي تفكير في إقادمة دولة عربية، عندما يقول: «.... لم يخطر ببالي أصلاً الاقتداء بالفاتحين المتغلبين كما ذكرتم... **ولا تأليف دولة عربية، كما أرجف المرجفون، لأني أرى في ذلك ضياعاً للإسلام عن بكرة أبيه، وخروجاً عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله!**»(١).

رغم أننا نعلم أن ثورة عرابي كانت لها، وبها أفكار عربية ناضجة. ولقد بعث المستشرق «دوفيرييه»، إلى المحامي البريطاني الذي تولى الدفاع عن عرابي أثناء محاكمته بمعلومات «تتهم» عرابي بالاتصال بالحركة السنوسية المعادية للأتراك. وذات الطابع العربي، في ليبيا.

---

(١) من جواب الزعيم احمد عرابي على رسالة لجورجي زيدان، عن كتاب [مشاهير الشرق] لجورجي زيدان.

كما أننا نعلم التضامن بين كل من الثورة العرابية والثورة المهدية في السودان، والتي كانت معادية للأتراك كذلك.

كما أن وثائق الثورة نفسها قد تضمنت تلك البرقية التي كتبها الخديو توفيق [١٨٥٢ - ١٨٩٢ م] إلى السلطان العثماني في نوفمبر سنة ١٨٨١ م والتي تقول: «إن مصر في حالة ثورة، وإن هناك اقتراحاً لإنشاء امبراطورية عربية!».

ولكنه المناخ الفكري الذي رعاه العثمانيون في العالم العربي، هو الذي جعل عرابي يرى في العروبة والدولة العربية خروجاً على الدين، وضياعاً للإسلام عن بكرة أبيه.

وهذا المناخ الفكري هو الذي ولد الكواكبي فيه، وتربى وفكر وهو من حوله، يزخر بالدعوات والدعاة والأنصار.

* * *

فإذا جاء الكواكبي في هذا المناخ الفكري الذي أشرنا إلى بعض جوانبه، ليبدع في العروبة والقومية ذلك البناء الفكري الناضج الذي تحدثنا عنه في هذا الفصل، استطعنا أن نبصر بحق درجة الإبداع والخلق والتجديد التي جاء بها، ومستوى عمق الإضافة التي قدمها، وأيضاً أصالتها وتكاملها.

واستطعنا تبعاً لذلك أن نرى، دون مبالغة، في أفكاره العربية أنضج بناء فكري شهده، حتى ذلك الحين، تطور الفكر القومي عند العرب، والبناء الأول، في هذا المجال، الذي اكتملت له

عناصر النظرة المتكاملة، بل النظرية الواضحة ذات الصياغات المحددة، والتي أصبحت نقطة انطلاق للباحثين العرب في هذا الميدان.

* * *

على أن هذا لا يعني أن الكواكبي قد أبدع ما أبدع في العروبة والقومية، وسط فراغ فكري كامل في هذا الموضوع، فلقد كانت هناك أفكار عربية كثيرة، وحركات عربية كثيرة كذلك، لا في وجدان الأمة وحياتها وحضارتها فحسب، بل وفي أفكار الساسة والمثقفين والرواد، سواء منها تلك التي تجلت في تصدي جمال الدين الأفغاني [١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] للمستشرق الفرنسي «أرنست رينان» [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] عندما هاجم العنصر العربي ونفى صفة العروبة عن أعلام الفلسفة والعلم الذين شهدهم تراثنا في العصور الوسطى، فانبرى جمال الدين يدافع عن العرب والعروبة دفاع الرائد المؤمن بهذه الأمة[١].

أم في حركات المقاومة التي كانت تزخر بها الولايات العربية ضد الأتراك العثمانيين إنما الذي نود أن نبرزه هو أن هذه الأفكار العربية إما أنها كانت في مركز الدفاع عن العرب والعروبة، على حين أننا نجدها قد أصبحت لدى الكواكبي نظرية متكاملة تتخذ لنفسها مركز الثورة وموقع الهجوم... وإما أنها كانت غير

---

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٠٧.

ناضجة وغير حاسمة، وعلى قدر كبير من التردد، بينما نجدها عند الكواكبي أوضح ما تكون، وعلى قدر من الحسم ليست بعده زيادة لمستزيد.

بل إننا إذا قارنا فكر الكواكبي ونظريته في العروبة والقومية، وحسم موقفه ووضوحه إزاء الأتراك العثمانيين، بموقف «المؤتمر العربي الأول»، المنعقد بباريس سنة ١٩١٣ م، أي بعد وفاة الكواكبي بأحد عشر عاماً، من هذه القضية، وهو المؤتمر الذي عقده ممثلو التيارات العربية القومية في ولايات المشرق العربي العثمانية، والذي مثلت فيه الجمعيات والتنظيمات السياسية في هذه الأماكن، وأيضاً حزب اللامركزية المقيمة قيادته في القاهرة، وعرب المهجر، إذا قارنا فكر الكواكبي بفكر هذا المؤتمر، حول العروبة والقومية العربية، وجدنا البون شاسعاً بين نضج الكواكبي وتخلف هذا المؤتمر بصدد هذا الموضوع.

فمصر في نظر الكواكبي جزء أساسي من الوطن الذي يناضل لتوحيده، ويمثلها اثنان في مؤتمر [أم القرى]، ويراها مقراً محتملاً لجمعيته السرية المناضلة في سبيل العروبة والاستقلال، بينما يمنع رئيس مؤتمر باريس هذا أحد أبناء مصر من الاشتراك في مناقشات المؤتمر![1].

وبينما يتحدث الكواكبي عن العرب في شبه الجزيرة،

---

(١) وهو الدكتور سيد كامل، وهو مصري كان يدرس الحقوق في باريس، انظر وثائق [المؤتمر العربي الأول] ص ١١٥، طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م

وعشائرهم القاطنة بين دجلة والفرات، والنازحين إلى إفريقيا . .

يتحدث مؤتمر باريس فقط عن «سكان جزيرة العرب، وبني عمومتهم في العراق وما بين النهرين ووادي الأردن، وسهول الشام وجبالها وسواحلها ونجودها»[1].

وبينما يتحدث الكواكبي عن وجوب بناء الكيان العربي، والدولة العربية، والخلافة العربية، نرى المؤتمر يتحدث عن «الأمة العثمانية». وعن «أن العرب لا يريدون الانفصال عن الأتراك» ويجعل مطلبه «حكومة عثمانية، لا تركية ولا عربية»[2].

كما يتحدث المؤتمرون كذلك عن أننا «قوم ولدتنا أمهاتنا عثمانيين، ونشأنا عثمانيين، ونريد أن نبقى عثمانيين، ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلاً!»[3].

إلى آخر الفروق الهامة والحاسمة بين نضج فكرة العروبة والقومية عند الكواكبي، وتخلف مفاهيمها عند قادة هذا المؤتمر، الذي عقد بعد وفاة الكواكبي بسنوات، وهي فروق تكفي إشارتنا إليها، فضلاً عن تتبعها في وثائق المؤتمر، للدلالة الأكيدة على المدى الذي وصل إليه الإبداع الكواكبي في هذا الباب،

---

(١) المصدر السابق، ص ٣.

(٢) من خطاب المندوب اسكندر بك عمون في المؤتمر، المصدر السابق، ص ٩٨، ١٠٣، ١٠٤.

(٣) من خطاب الشيخ أحمد طبارة في المؤتمر، المصدر السابق، ص ٩٠.

والعمق والأصالة التي يمكن أن توصف بهما هذه الإضافة الهامة التي قدمها للفكر العربي في هذا المجال.

* * *

وإذا علمنا كذلك أن النضج القومي في بلاد المشرق العربي، إنما ساعد في تكوينه ذلك الجموح التركي نحو القومية التركية، والذي تمثل في التيار الذي عرف باسم «الحركة الطورانية»، وهو التيار الذي تبلور في أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م)، مع علمنا باكتمال النظرة العربية، والنظرية القومية لدى الكواكبي قبل ذلك بسنوات كثيرة، أدركنا كم كان الكواكبي سباقاً في هذا الميدان، وأدركنا كذلك أن عمق الرجل في دراسة تاريخنا وتراثنا، وملاحظاته العميقة وهو يدرس واقع الأمة وحياتها، إنما لعبا دوراً هاماً وكبيراً في بلورة نظرته في العروبة ونظريته في القومية منذ ذلك التاريخ..

وهي جميعاً دلائل حاسمة على أن الكواكبي قد قدم هنا ما لم يقدم سواه من المعاصرين ولا من الذين سبقوه.. وأنه بذلك جدير بأن يعقد له لواء الريادة في هذا الميدان.

مع الحرية.. ضد الاستبداد

[إن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة!..
وإن الخوف من التعب تعب، والإقدام على التعب راحة!..

والحرية هي شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المسفوح.. والأسارة هي شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق!..

والاستبداد، لو كان رجلاً، وأراد أن ينتسب لقال: أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذل، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي: فالمال، المال، المال؟!..].

الكواكبي

وحديث الكواكبي عن الحرية، ووجهة نظره فيها، وإن تكن قد ظفرت من دارسية بأكبر قسط من الاهتمام، وسلمت إلى حد كبير من الغموض والالتواء الذي أصاب ما كتب عن وجهات نظره في مسائل أخرى، وبالذات قضية العروبة والقومية، إلا أن في حديث الكواكبي عن الحرية الشيء الكثير الذي يبهر الباحث، والذي سيظل، أغلب الظن، يبهر دارسيه إلى وقت طويل.

ولعل من أولى النقاط التي تستحق الالتفات في هذا الباب، ومن ثم الإعجاب والإكبار، هي تلك التفرقة وذلك التمييز، الذي يشعر به قارىء الكواكبي، بين «الديمقراطية» كنمط حياة سياسي يمكن أن يختلف من نظام إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن مذهب إلى مذهب، وبين «الحرية» كمعطيات وثمرات ونتائج لهذا النظام.. وهي تفرقة لم يطرق باب البحث فيها سوى في عصر متأخر وحديث.

والكواكبي يتحدث عن جهاز الدولة الذي سث «الإسلامية»

قيامه، والذي يتفق والسوابق التاريخية التي شهدها المجتمع العربي الإسلامي عندما اتحدت فيه «إدارة الدين بإدارة الملك»، فأثمرت نموذجاً من العدالة يدعو الكواكبي إلى الاسترشاد بعمومياته وكلياته، فيرى تميز هذا النظام بما نسميه الآن الفصل بين سلطتي الإدارة والتشريع.

وفي جانب الإدارة والسلطة التنفيذية وجهاز الدولة، ليس هناك تمييز بين المواطنين لأي سبب من الأسباب، أما في نطاق الشورى والسلطة التشريعية فلا بد هنا من الارتفاع إلى ما فوق «العمومية»، واختيار نوع من «الأرستقراطية»، والاعتماد على من يسميهم «الأشراف»، . . وذلك لأنه يرى «أن الإسلامية مؤسسة على أصول الإدارة الديمقراطية، أي العمومية، والشورى الأرستقراطية، أي شورى الأشراف»[1].

حتى لا نسيء فهم استخدام الرجل لكلمة «الأشراف» هذه، ونلصق به تهمة الانحياز إلى جانب الأقلية المتميزة، لأي سبب من الأسباب، فيما يتعلق بحق الذين لهم حق الارتقاء إلى سلطة التشريع، علينا أن ندرك أن الكواكبي، وهو «الشريف» حسباً ونسباً، قد كان يرى في السلطان الذي يضفيه «الحسب والنسب» على الإنسان أمراً مرذولاً، لأنه يورثه ما حاول البعض تسميته «بالاستبداد العادل» وهو حديث خرافة، لأنه لا عدل مع

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٤٧

الاستبداد، فتحدث إلينا عن «أن اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب، يفعلان ولا عجب فعل المستبد العادل، أي عنقاء مغرب!»(1).

بل إن الكواكبي لينفي أي شبهة يمكن أن تلصق به بسبب ما يرى من انحصار السلطة التشريعية بمن يسميهم «الأشراف»، عندما يتحدث عن «الأصلاء» الذين ميزتهم المجتمعات في ظروف معينة ولأسباب معينة، ويرى فيهم جرثومة يجب التخلص منها، فيقرر، بروح ديمقراطية عالية «أن الأصلاء هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل، لأن بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أن ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأ منها القوات العصبية!»(2).

فهو هنا لا يترك عذراً لباحث في الديمقراطية والحرية عنده، كي يخطىء في فهم ما يريد، بل كيف غاب حديث الكواكبي هذا عن الذين يدرسون تطور المجتمع عندنا، فالتمسوا لنشوء الطبقات فيه، وتمايز الناس، أمثلة من خارج نطاقه، بينما هذا المفكر العملاق قد أصاب كبد الحقيقة في هذا الموطن منذ نحو قرن من الزمان؟!.

---

(1) المصدر السابق، ص ١٦٣. [و«عنقاء مغرب» طائر مجهول الجسم، لم يوجد، ويعبر به عن هلاك الشيء وبطلانه، وكذلك عن الداهية].
(2) المصدر السابق، ص ١٦٣.

فهو الذي قطع بأن «الإسلامية مؤسسة على أصول الإدارة الـديمقـراطيـة، أي العمـوميـة»، وأنها «أسست حكـومـة ديمقراطية»[1]، لا يمكن أن يجعل من السلطة التشريعية احتكاراً «للأصلاء» أو الأغنياء أو «الأشراف»، بالمعنى الذي شاع في أوربا، والذي رادف تعبير «النبلاء»، وإنما هو يقصد من وراء ذلك الإشارة لهذه الجماعة (الأمة) التي هي جديرة بحمل المسؤولية، ومستعدة لها، ومعدة لتحمل تبعات هذا العمل العظيم، لأن الأمم الموفقة عنده قد «خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية السياسية، وذلك منطبق تماماً على ما أمر به القرآن الكريم في آية ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وفي كمالة هذه الآيـة، وهي: ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ من التبجيل ما يحمل نفوس الأبرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها، الممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه»[2].

فمجلس النواب هنا ـ السلطة التشريعية ـ وظيفته «السيطرة» و«الاحتساب» على السلطة التنفيذية التي يسميهـا الكواكبي «الإدارة العمـومية السيـاسية». وهؤلاء الأعضـاء المشرعـون «الأبرار» إنما يقومون «بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها». . ومن هنا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٦

كان حديث الكواكبي عن اختصاص هذه السلطة «بالأشراف». ليرغب الأكفاء فيها، لأنها عبء وعناء، حيث إنها «ممقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه». فهي مهمة «مخصوصة»، ينهض بها «الخاصة» من أهل الذكر والاختصاص.

* * *

وعلى أساس متين من هذا الوضوح الذي يتميز به الكواكبي في تصوره للديمقراطية، كنظام سياسي، يمضي ليحدد دور الحكومة، ومهمة «الإدارة العمومية السياسية»، والعلاقة بينها وبين المواطنين، فيرى أن منشأ الحكومة كجهاز حكم إنما قام لخدمة الناس، فلقد «وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة... واستخدم قوتهم المجتمعة، وهي هي قوة الحكومة، على مصالحهم، لا لمصالحهم[1]!».

وهو هنا يحاول، إلى جانب تحديد المكان الطبيعي للحكومة في المجتمع، أن يفتح عيون الناس على الموازنة الحقة بين الرعية والرعاة، وكيف أن:

النـاس يخشـون مـن جـاه المليـك ومـا
لـديـه لـولاهـم فـي مـلكـه جـاه
كـصـانـع صـنـماً يـومـاً عـلى يـده
وبـعـد ذلـك يـرجـوه ويخـشـاه؟!..

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩.

وهو يرى أن الإنسان الحاكم، حتى لو كان عادلاً، فإنه ميال بحكم ظروف السلطة ومعطياتها إلى الاستبداد، فإنه «ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفالها لها، إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد!»[1].

والإنسان عندما يفكر في القتل، ثم يتذكر القانون والعقاب، فيخشى مغبة الجريمة، لو قارن حالته هذه بمشاعره وهو في ميدان القتال، حيث السلاح والذخيرة، وإزهاق الأرواح أسهل من قتل الذباب، وحيث لا عقاب ولا مسؤولية على ذلك، بل الترقي والنياشين، يستطيع أن يدرك فعالية إغراءات السلطة للحاكم بالاستبداد والظلم، ومن ثم أن يدرك عمق إحساس الكواكبي بمعايير العدل والاستبداد في هذا الموضوع!.

ومن هنا كان ميل الكواكبي إلى مفهوم في الحرية هو أقرب ما يكون إلى المفهوم «الليبرالي»، الذي يعادي تقييدها بأي شكل من قبل السلطات، والذي عبر عنه عندما قال: «لقد أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات، مستثنية القذف فقط، ورأت أن تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية، الحرية»[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.

ثم هو يمضي ليصور لنا أروع تصوير وأصدقه، تلك الركائز والعوامل التي يعتمد عليها المستبد في قهر الحرية واستعباد المواطنين، فيرى أن «جهالة الأمة، والجنود المنظمة»، إنما يمثلان «القوتين الهائلتين المهولتين» اللتين تجعلان المستبد يمعن في استبداده دونما حسيب أو رقيب!»[1].

بل هو يبلغ الذروة في تحديده لهذه الركائز عندما يقول: «إن الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي منها: قوة الإرهاب، وقوة الجند، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات، وقوة الأنصار من الأجانب!»[2].

فماذا ترك الكواكبي للأدب السياسي الحديث عندما يتحدث عن نظام حكم استبدادي رجعي يعتمد في بقائه على نفوذ المستعمرين «الأجانب»، والرجعية الداخلية التي تملك «الثروات»، والفئة الضالة من «رجال الدين» التي تستخدم رسالات السماء لخدمة المستبد، و«مال» الدولة، وجهازها «الإرهابي» و«قوة الجند» المرتزقة البوليسية، واستكانة الناس و«ألفتهم القسوة والركود»؟!.. إن الكواكبي لم يدع للأدب السياسي الثوري الحديث مكاناً كبيراً لإضافات كثيرة في هذا الباب.

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٥.

وليس أبلغ حسماً في الدلالة على بغض الكواكبي للاستبداد، وعشقه للحرية، وإيمانه، بل تقديسه للدستور والقانون، من حصره سبب أي بلاء، في اختلال السلطة القانونية وغلبة الاستبداد على نظام الحكم، حينما يقول: إنه «قد أثبت الحكماء المدققون بعد البحث الطويل العميق، **أن المنشأ الأصلي لكل شقاء بني حواء هو أمر واحد لا ثاني له، ألا وهو وجود السلطة القانونية منحلة ولو قليلاً، لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصية أو أشخاصية عليها**»(١).

بل إنه ليخيل إلينا أن الكواكبي يناقش الكثيرين من حولنا هذه الأيام، هؤلاء الذين يخفون أسباب عبودية المجتمعات وتخلفها بالحديث عن الأخلاق التي ضاعت، والدين الذي ذهب سلطانه، فيجادلهم الكواكبي فيقول: «... وقائل آخر يقول: الشرق مريض، مريض، وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يقف. مع أنه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم **بأن التهاون في الدين ناشىء من الاستبداد. وأن العافية المفقودة هي الحرية السياسية!**»(٢).

ثم يأخذ الكواكبي في مناقشة خرافة «المستبد العادل»، وتفنيدها، تلك الخرافة التي انتشرت في عصره، والتي نسبها البعض زوراً وبهتاناً إلى جمال الدين الأفغاني، فينفي أية حسنات

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٤.

يمكن أن تنسب لنظام الحكم الفردي والسلطة الاستبدادية، فيقول: إنه «قد يدخل على الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، ويسلمون له بها، فيقولون: . . . الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد، والحق أن هذا فيه عن خوف وجبانة، لا عن إرادة واختيار!. ويقولون: هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره، والحق أنه مع الكراهية والبغض، لا عن ميل وحب!. ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور. والحق فيه أنه عن فقر وعجز، لا عن عفة ودين!. ويقولون: هو يقلل الجرائم. والحق أنه يخفيها فيقلل تعديدها لا عددها!»[1].

* * *

وبعد دراسات استغرقت كل كتابه [طبائع الاستبداد]، وشطراً كبيراً من [أم القرى]، يسلك الكواكبي مسالك طريفة لاكتشاف درجات تمتع الأمم بقدر من الحرية، أو إصابتها بداء الاستبداد، فيرى أنه «يستدل على عراقة الأمة في الاستبداد أو الحرية باستنطاق لغتها، هل هي كثيرة ألفاظ التعظيم؟ غنية في عبارات الخضوع؟ كالفارسية مثلاً؟؟. . أم فقيرة في هذا الباب؟ كالعربية؟؟؟»[2].

وهو لا ينسى أن يذكر الأتراك العثمانيين في مثل هذا المقام، فيتحدث عن أن من صفات السلطان العثماني وألقابه: «المولى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٦.

المقدس، ذي القدرة، صاحب العظمة والجلال، المنزه عن النظير والمثال، واهب الحياة، ظل الله، خليفة رسول الله، مهبط الإلهامات، مصدر الكرامات، سلطان السلاطين، مالك رقاب العالمين، ولي نعمة الثقلين، ملجأ أهل الخافقين!»[1].

بينما نجد نفس اللغة التركية محرومة من كلمات، أو محرم على أهلها استخدام كلمات مثل: «حرية، وجمعية، ووطن، وخلافة، وخلع، ومبعوث.. الخ.؟!!»[2].

ومن أجل ذلك يعجب الكواكبي كيف أن أناساً يدعون لأنفسهم صفات العلم، ويخلعون على أنفسهم ألقاب المؤرخين، يعظمون المستبدين ويسمونهم بغير أسمائهم الحقيقية، ويخلعون عليهم جليل الصفات، فيرى أنه «من الغريب موقف جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام، وينظرون إليهم نظر الإجلال والاحترام، لمجرد أنهم كانوا أكثروا في قتل الإنسان وأسرفوا في تخريب العمران؟!»[3].

ونحن نشعر هنا أن الكواكبي ينحاز صراحة ضد الذين يرون التاريخ أعمالاً وأحداثاً صنعها «الأبطال» والملوك والعظماء، ويشير إلى أفضلية اختيار طريق أدق في تفسير التاريخ وتقويم أحداثه وقضاياه.

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، «هامش» ص ٢٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٩.

وفي نهاية مطاف الكواكبي مع قضايا الحرية ومشاكل الاستبداد والمستبدين، يحدد بوضوح الهدف من الديمقراطية والحرية والعدالة، وكيف أنها خدمة المجموع وسعادته، فسواء أكانت السلطة تنفيذية إدارية، ممثلة في الحكومة، أم تشريعية، متمثلة في رجال الشورى وجماعة النواب، فلا بد وأن يكون المطلب والمراد هو صالح الجميع، أو المجموع، أي أكثرية الناس.. وذلك أنه «لا بد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل، أو لرأي الأكثرية، التي فوق الثلاثة أرباع عدداً، أو قوة بأس، وإلا فلا يتم الأمر»[1].

وليس المطلب الذي يريد الكواكبي تحديده هنا كهدف للديمقراطية «هو الحرية السياسية» وحدها، بل إننا نقطع بأن الكواكبي إنما كان يبصر للديمقراطية مضموناً اجتماعياً، إلى جانب مضمونها السياسي، فهي عنده لا تكون «ديمقراطية تامة» إلا إذا كانت حاملة للمضمونين معاً، مشتملة عليهما. وإلا فماذا تعني عبارته التي تقول: «إن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية، حيث كانت نيابية اشتراكية، أي (ديمقراطية) تماماً، فصارت بعد الراشدين، بسبب تمادي المحاربات الداخلية، ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم صارت أشبه بالمطلقة»[2].

مادا تعني عبارته هذه عن الديمقراطية التامة الحقة التي هي

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

«نيابية اشتراكية»، إن لم تكن تعني ضرورة احتواء الديمقراطية على مضمون اجتماعي اشتراكي إلى جانب مضمونها السياسي المتمثل في الحرية السياسية؟؟.

بل حتى الحرية السياسية، نجد الكواكبي لا يرى فيها «نزعة فردية»، كما هو الحال في أوربا عندما عرفت الحرية في عصر الكواكبي، وأخذ مفهومها عندها يجذب أنظار الكثيرين من مفكرينا، يبهر عقولهم، بل يراها صاحبنا التزاماً للإنسان إزاء قومه ومجتمعه، بقدر ما هي تحرر لهذا الإنسان. فيرى أن «الإنسان الحر، مالك لنفسه تماماً، ومملوك لقومه تماماً»[(١)].

فهل بعد ذلك عمق ينتظر حدوثه من مفكر عاش في ظروف الكواكبي وعصره؟، هل هناك ما هو أروع من هذه الصياغات النظرية التي ساقها عن الديمقراطية والحرية، والمضامين الثورية التي رآها في كل منهما؟؟.. وكذلك انحيازه إلى صف الأغلبية ضد الأقلية في هذا الموضوع، وذلك عندما يضع قاعدة الأغلبية والأقلية التي هي إحدى معطيات النظام الديمقراطي الحق، والتي يظنها البعض وافدة إلى مجتمعاتنا العربية من لدن الحضارة الغربية الحديثة.. ثم ينحاز صراحة إلى صف الكل أو على الأقل الأغلبية التي تزيد على الثلاثة أرباع، أي إلى صف الملايين من الناس البسطاء، وأهل االاختصاص، وهو بذلك إنما يضيف إلى بنائه الفكري الشامخ في العروبة، بناء آخر في ميدان الحرية والديمقراطية ما أجدره بالإجلال والاحترام.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٥

مع الاشتراكية.. ضد الاستغلال

[إن المعيشة الاشتراكية هي من أبدع ما يتصوره العقل... والمال إنما يُسْتَمَدّ من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها، ولا يملك، ولا يتخصص بإنسان إلا بعمل فيه أو في مقابله....

والأغنياء ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون، ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها؟!.].

الكواكبي

كانت السنوات القليلة التي عاشها الكواكبي في مصر، بلا شك، من أخصب سنوات حياته الفكرية، كما كانت هي السنوات التي شهدت ازدهار الحركة الاشتراكية في أوربا، وعنف الدعوة إليها، واتخاذها الطرق والمسالك إلى كثير من البلاد غير الأوربية، وكان الكواكبي يقرأ الترجمات عن اللغات الأوربية، ويقتبس منها الشيء الضروري لتطعيم فكره وأسلوبه بالجديد، كما كان يقرأ التركية والفارسية، وكانتا يومئذ تحفلان بكثير من وجهات النظر الحرة والمتقدمة، لوجود عديد من أحرار فارس والدولة العثمانية في المنافي، ولوجود كثير من الحركات الوطنية والثورية التي تناضل الطغيان في هذه البلاد.

ولو أن الكواكبي كان قد استقى فكره الاشتراكي من أوربا، وأخذ عن الغرب هذا اللون من ألوان الفكر، وهذا النمط من أنماط الدعوات الاجتماعية، لما كان عليه يومئذ لوم أو بأس وتثريب، فمن قبله صنع ذلك كثيرون، وفي سني حياته بمصر كانت هناك تيارات سياسية كاملة تصطنع ذلك في كثير من

القضايا، ومن بعده أخذ المرحوم محمد فريد [١٨٦٨ ـ ١٩١٩ م] بشيء من ذلك، وتأثر المرحوم عمر لطفي [١٨٦٧ ـ ١٩١١ م] بالحركة التعاونية في فرنسا وألمانيا وانجلترا فوضع أسس التعاون الحديث وبذوره في مصر، وكانت له أمجاد الريادة، ولم يقل أحد بأنه ليس رائداً لأنه اقتبس ذلك من أوربا.

ولكن الكواكبي لم يصنع ذلك، ولا مثل ذلك، عندما أمسك القلم ليدعو إلى الاشتراكية، في هذا الوقت المبكر من التاريخ، وهذه ميزة، ودليل عبقرية، بل نموذج من الجودة والأصالة يستحق التقليد والاحتذاء.

فهو كمفكر عربي إسلامي تجمعت لديه حصيلة عملاقة من دراسة المجتمع العربي الإسلامي الأول، زمن الخلفاء الراشدين، ثم بعد ذلك في تطوراته الكثيرة والمتعرجة. وكعبقري امتلك جوهرة الوعي العميق بأسرار القرآن الكريم، وروح الرسالات السماوية، كان يرى أن «الإسلام كدين» قد فتح أمام الإنسان طريقاً للتطور والتقدم في كل الميادين ليست له حدود، وأنه قد وضع من «المثل» أمام البشر، ونصب أعينهم، ما سيظلون، أبد الدهر، يجدون السير نحو الوصول إليها، وكلما تقدموا نحوها خطوات كلما تقدمت حياتهم وتطورت وارتقت في مختلف المجالات والميادين.

كما كان يرى الكواكبي أن «الإسلامية، كنظام حكم، قد قامت على «الفلسفة الاشتراكية» وأن أية زاوية سنحاول النظر من

خلالها إلى تعاليم هذه الإسلامية وتقاليدها، لا بد وأن تكون هي «الاشتراك». . و«الاشتراك العمومي». .

ومن هنا كان الكواكبي في مقارنته غني التجربة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي بهذه القيم والأسس والمبادىء الاشتراكية، بفقر التجارب الأوربية، يرى أن عندنا المنبع، ولنا السوابق التاريخية، ومن هذه الترسانة الفكرية والثورية التي شهدها التاريخ الثوري للمجتمعات العربية الإسلامية، ومن هدي القرآن ووعي روحه ومقاصده، من كل ذلك يجب أن تكون نقطة الانطلاق لأن الاشتراكية بالنسبة لنا إنما هي امتداد لتجربة سبقت في وقت مبكر من التاريخ، وبعث لمجد يجب أن يبرز ويقدم ويعاد تأسيسه، متلائماً مع ماجد من ظروف وتطورات وملابسات، وليست نظاماً غريباً يستريب فيه البعض، وينفر من غرابته البعض، ويعتبره البعض «مستورداً»، غير جدير بالإقبال عليه، أو المناصرة أو الاحترام!.

فالسياسة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين، كانت في نظر الكواكبي «نيابية اشتراكية»، أي «ديمقراطية تماماً». . وذلك هو النموذج الذي يعتمده مفكرنا الكبير سابقة تاريخية يجب أن نستلهم روحها وكلياتها لنسترشد بها ونحن نبني مجتمعنا الجديد، لأنها هي الفترة التاريخية الوجيزة التي «إتحدت فيها إدارة الدين بإدارة الملك». . وذلك لأن «هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى القرآن وعملوا به واتخذوه إماماً، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي

حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية، وحالات معيشة اشتراكية، لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة!»(١).

وبعبقرية فذة يفسر الكواكبي السر في دعوة القرآن الكريم إلى «معيشة الاشتراك العمومي» هذه، ويبين كيف أن هذا النوع من أنواع المعيشة هو الطبيعي المتلائم مع سنن الكون وقوانين الطبيعة، وأن الفردية المطلقة لا وجود لها، لأنها ضد نظام الكون وسنن الحياة، ومن ثم فإن نمط المعيشة الفردي، غير الجماعي، إنما هو انتكاس بطبيعة الحياة، فضلاً عن أنه عداء صريح لأسباب تقدمها، فيتحدث حديث الفيلسوف العالم عن «أن الاشتراك هو أعظم سر الكائنات به قيام كل شيء ماعدا الله وحده، به قيام الأجرام السماوية، وبه قيام المواليد، به قيام حياة العالم العضوي، به قيام الأجناس والأنواع، به قيام الأمم والقبائل، به قيام العائلات وأعضاء الجسم، نعم فيه سر تضاعف الحياة، فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس (قانون) التربيع، فيه سر تجديد الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد. نعم، الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتمدنة»(٢).

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٣.

فهو يفتح عيون الناس على مجموعة من الحقائق العلمية، والطبيعية، والفلكية، والرياضية، والبشرية، والاجتماعية، التي تنطق كلها بأن «معيشة الاشتراك العمومي» إنما هي الثمرة المنطقية لكل ما هو طبيعي وعادل في هذه الحياة، وكأنما هو في ذلك يستخدم المنطق القرآني البسيط والمعجز، عندما يخاطب الناس، متسائلاً، فيقول: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1]؟!.

* * *

وإذا كانت هذه هي قوانين الكون وسنن الحياة، ونواميس المجتمعات، فإن الكواكبي ينطلق منها إلى تقرير أن الفوارق التي حدثت بين الناس، والحواجز التي أقامها البعض لتحول بين المحرومين وبين التمتع بثمرات كدهم وعملهم، إنما هي فوارق زائفة وباطلة، وأنه لا يمنع المحرومين من إزالتها سوى سجن الوهم الذي يعيشون فيه! وأنهم لو أدركوا سر قوتهم لجرفت حركتهم تلك القلة الظالمة المتخمة التي تغتصب منهم ثمرات الحياة، فهو يرى في هذه القلة من «الأصلاء... جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل، لأن بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أن ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل، فنشأ منها القوات العصبية!»[2].

---

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٦٣.

ومن هنا نشأ الظلم الاجتماعي، وكانت الفوارق بين الطبقات، فلقد تبع هذه العصبية «أن رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضاً، فإن رجال السياسة والأديان ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة، ينفقونه في الرفة والإسراف، مثال ذلك أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمرورهم فيها أحياناً، ولا يفكرون في ملايين الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام!... ثم أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون المحتكرون، وأمثال هذه الطبقة، ويقدرون كذلك بواحد في المائة يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع أو الزراع!»[1].

* * *

وبعد أن يتحدث الكواكبي هذا الحديث، الذي هو ذخيرة في الأدب السياسي الاشتراكي العربي الإسلامي، والذي يضارع الروائع التي كتبت في الاشتراكية، وإثارة الجماهير، وتعليمها فنون صراعها ضد الأقليات الظالمة، إذا ما قيس بظروف عصره، نراه يتتبع بدقة وأناة تلك المصادر التي أثرت عن طريقها هذه الأقلية التي استخدمت الصدفة التي أعطتها العصبية في جمع المال، فنراه ينفي نفياً قاطعاً أن يكون تحصيل هذه الثروات بطريق عادل أو شريف، وذلك لأن «تحصيل الثروة في عهد

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٩، ١٧٠

الحكومة العادلة عسر جداً، وقد لا يتأتى إلا من طريق المراباة مع الأمم المنحطة، أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع من الاحتكار، أو الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطرات»[1].

وفي حديثه هذا، إلى جانب دلالته الاجتماعية التي تعنينا هنا، لمسة عبقرية لعمليات النهب الاستعماري التي كانت تتم في عصره من قبل الامبريالية الأوربية للشعوب المستعمرة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكثير من البلاد.

وهذه المراباة التي يمارسها المرابون يتحدث الكواكبي عن سر تحريمها من قبل كل شريعة عادلة، فيقدم لنا تفسيراً علمياً حديثاً عندما يقول: إن «الشرائع السماوية كلها، وكذلك الحكمة السياسية والأخلاقية، والعمرانية، حرمت الربا بقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية، لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب، وبدون عمل، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك.... بالربا تربو الثروات فيختل التساوي بين الناس»[2].

فهل هناك أدلة إدانة للرأسمالية قدمها الفكر العربي الإسلامي، المعاصر للكواكبي، أجود وأعمق من هذه التي قدمها

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٤.

الكواكبي؟.. والتي جعل فيها تحريم الربا، الذي أجمعت كل الشرائع والقوانين على تحريمه، إنما هو لنفس الأسباب التي تمثل طريق الربح الرأسمالي، ونمط الحياة التي يحياها الرأسماليون، بل والاقطاعيون الذين يعيشون على ريع الأطيان، وكذلك الذين يعيشون متعطلين معتمدين على ريع العقارات؟!.

ذلك لأن الكواكبي كان يؤمن إيماناً عميقاً بأن العمل الإنساني هو أشرف شيء يمكن أن يتحلى به الإنسان، بل لقد رآه معيار إنسانية الإنسان عندما تحدث عن «أن البشرية هي العلم... وأن القضاء والقدر هما السعي والعمل»[1] ومن ثم فإن «الإنسان لا يكون إنساناً ما لم تكن له صنعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد، لا تنقصه فتذله، ولا تزيد عليه فتطغيه»[2].

بل وربما غالى الكواكبي في تقديسه للعمل، والعمل اليدوي بالذات، كرد فعل لاحتقار الكثيرين له ولأصحابه، فتحدث عن «تفضيل الناس الكناس على الحجام، لأن صنعته أنفع للجمهور، وكذلك صانع الخبز أفضل من ناظم الشعر»[3]!.

وهي مبالغة معلومة السبب، وإن كانت ولا بد ستغضب الشعراء!.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٥.

أما هؤلاء الذين يريدون أن يجردوا حياتهم من شرف العمل ليعيشوا عالة على غيرهم، فمنهم يقول مفكرنا الكبير: إن «من لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له، بل يريد أن يعيش كَلًّا عليهم (أي عالة على العاملين)، لا عن عجز طبيعي، (يكون) حقيراً يستحق الموت لا الشفقة!»[1].

بل إننا لنعجب كل الإعجاب عندما نجد أن تلك الدعوة التي لا تزال موضع جدل بين مثقفينا العرب اليوم، والخاصة بالمعسكر الفكري والنضالي الذي يجب أن ينحاز إليه المثقف الثوري، ويلتزم أهدافه، نجدها قد حسمت في نظر الكواكبي، ونجده قد اختار معسكر العاملين الذين يصنعون الحياة، بل على وجه التحديد معسكر «المثقفين والفلاحين والعمال»! وحتى تسكن الدهشة بعض الشيء، ولانتهم بالمبالغة، فإننا نبادر بتقديم كلماته التي يتحدث فيها عن أن الإنسان الراقي «قد يترفع عن الإمارة، لما فيها من معنى الكبر، وعن التجارة، لما فيها من التمويه والتبذل، فيرى الشرف في القلم، ثم في المحراث، ثم في المطرقة!»[2].

يقول هذا، وهو الذي مارس التجارة زمناً طويلاً، وعمل بجهاز الدولة، فخبر مثل هذه المهن والأعمال، وهو كذلك سليل الأسرة (الهاشمية) والشريفة، ووريث الحسب والنسب والجاه!.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٥.

وإذا كان هذا هو نصيب البطالة أو التبطل، والكبر والتبذل والتمويه، كنمط حياة للأثرياء والمرابين، من فكر الكواكبي وسياط كلماته، فإن نصيب الاحتكار، كطريق للإثراء، هو الآخر جدير بالملاحظة والاعتبار.

فهو يتحدث عن الوسائل التي ترضاها «الإسلامية» طرقاً للتمول وتحصيل الثروة، والشروط التي يجب أن تتوافر في هذه الطرق حتى تستقيم مع الحياة الإسلامية فيقول: «إن التّمولَ.. محمود بثلاثة شروط.. **الأول**: أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال، أي بإحرازه من بذل الطبيعة، أو بالمعارضة، أو في مقابل عمل، أو في مقابل ضمان. **والثاني**: ألا يكون في التمول تضييق على حاجيات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات، مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته، وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتهم وتغذيهم بثمراتها وتأويهم في حضن أجزائها، فجاء المستبدون الظالمون الأولون ووضعوا أصولاً لحمايتهم من أبنائها، وحالوا بينها.... **والثالث**: ..... هو ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير!»[1].

وليست طرق التبطل والمراباة والاحتكار هي التي تحظى فقط بهجوم الكواكبي وتجريحه، بل إن ثمرتها أيضاً، وهي تكون طبقة من الأغنياء والأثرياء، نراها محل هجوم منه أيضاً، فهو يرى في

---

(1) المصدر السابق، ص ١٧٣، ١٧٤.

وجود طبقة من الأثرياء في المجتمع دليل مرض وتخلف لا عامل صحة وتقدم، وظرفاً مواتياً للاستبداد، لا عوناً لهذا المجتمع على الحرية والانطلاق، لأن «الأغنياء ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون، ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها!»[1].

وما ينطبق على مجتمع من المجتمعات ينطبق على حضارة من الحضارات، بل على القارة بأسرها، فأوربا المتمدنة الغنية العاتية، صاحبة البريق واللمعان في عصر الكواكبي، يراها «مهددة بشرور الفوضويين، بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالي فيها!»[2].

* * *

فإذا ما جاء الحديث عن «الثروة العامة» في إنتاج الكواكبي الفكري أحسسنا أننا بإزاء نضوج فكري وعبقري نستعين على تقديمه دون مبالغة إلى القارىء بعدد من النصوص، لأن الدهشة ستسرع بالإنسان إلى الشك في المبالغة والتزيد على الرجل، ومن ثم فليس سوى نصوصه هو، حكم ومعيار نشهدها على عبقريته الفذة في مثل هذه الميادين.

فهو بعد أن يتحدث عن أن «المال يُسْتَمَدّ من الفيض الذي

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٥.

أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها، لا يملك، ولا يتخصص بإنسان إلا بعمل فيه أو في مقابله»[1].

نراه يرى كيف «تركت الإسلامية معظم الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة، يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فيها فقط!»[2].

كما يتحدث عن أن ظروف العصر، ودواعي الاهتمام بتحقيق الاستقلال الوطني الحقيقي، إنما تفرض الاهتمام بتنمية حجم الثروة العامة في ا لأمة، إذ «لم يكن قديماً أهمية للثروة العمومية، أما الآن، وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل الحفاظ على الاستقلال»[3].

فهو هنا يتحدث عن أن الحفاظ على الاستقلال، لا بد وأن يستلزم تنمية الثروة العمومية في الأمة، وتكبير حجمها، كأعمق ما يتحدث به اليوم مفكر يدرس احتياجات الأمم الناهضة، حديثة الاستقلال، التي يتربص بها الأعداء الذين يغالبونها بحروب ومكائد قائمة على العلم والمال؟!.

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٦.

بل وقضية أخرى ربما كان تناول الكواكبي لها أكثر غرابة وأدعى إلى العجب والإعجاب.. وهي تلك التي يتحدث عنها بعضنا اليوم كقضية حديثة مستحدثة، عندما نفرق بين الثروة العامة والملكية العامة وبين ملكية الحكومة ورأسمالية الدولة، فندعو للأولى ونراها جوهر البناء الاشتراكي، ونرى في الثانية مجرد خطوة نحو الاشتراكية، وإن لم تكن بناءً اشتراكياً بحال من الأحوال.

«فالثروة العمومية»، التي كان الكواكبي من أنصارها، إنما كان يعني بها الثروة المملوكة للمجموع، والمخصصة للكافة، لا التي تملكها الحكومة، ويستمتع بثمارها جهاز الدولة، فهو يتساءل عن مكان «الحكومة» من هذه الثروة العمومية، ومركزها من السلطة والتصرف والتحكم والاستفادة بهذه الثروة فيقول: «هل للحكومة صفة المالكية؟ أم صفة الأمانة والنظارة على الأملاك العمومية، مثل الأراضي والمعادن والأنهر والسواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات؟.. هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة والمادية والأدبية كما تشاء بذلاً وحرماناً؟ أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع؟ أو موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والأديان بنسبة عادلة؟»[1].

وهو بهذا يضيف إلى البناء الذي أقامه حول الاشتراكية لمسات

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨، ٢١٩.

عبقرية تعطي هذا البناء القدر العظيم من الأصالة التي تستحق أعمق مشاعر التقدير والإعجاب.

* * *

ونحن نريد أن نقول للذين سيبهرون أكثر من اللازم، لهذا الفكر الناضج الذي قدمه الكواكبي في نطاق الفكر الاشتراكي، إن هناك حقيقة لو وعيناها جيداً فسنجد الكواكبي الاشتراكي إنما يمثل امتداداً عزيزاً لبناء شامخ من التفسير التقدمي والعلمي للتراث العربي الإسلامي الذي أرسى القواعد المتقدمة لكثير من القضايا منذ قرون، ومن ثم فإن الكواكبي لم يكن عالة على المترجمات، وإن استفاد منها كثيراً، كما أنه لم يكن شذوذاً على جريان نهر الفكر التقدمي العربي الإسلامي الهادر منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

فالكواكبي قد درس ووعى، كما درسنا ويجب أن نعي أن القرآن الكريم قد عبر عن جوهر رسالته الاجتماعية بقوله: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[1]. وأنه عندما تحدث عن الأموال إنما أضاف ملكيتها إلى الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي أتاكم ﴾[2].

وأنه جعل الناس مستخلفين في هذه الأموال عندما قال:

---

(١) القصص: ٥.

(٢) النور: ٣٣.

﴿ آمنوا بالله ورسوله، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾(١).

وأننا «لو قلنا إنه لا يعطف على تلك الملكية الفردية، ويكاد ينكرها، لوجدنا سنداً في تلك الآيات»(٢).

وأن من المفسرين القدامى لهذه الآيات من القرآن من قال: إن مراد الله منها هو أن يقول للناس: «إن الأموال التي في أيديكم، إنما هي أموال الله، بخلقه وإنشائه لها، وإنما مَوّلكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب، فأنفقوا منها.. وليهن عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره»(٣).

فإذا ما جاء أبوذر الغفاري رضي الله عنه، نجده يصيح في الناس: «إن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يوم وليلة، أو شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لكريم»(٤).

---

(١) الحديد: ٧.

(٢) أمين الخولي [في أموالهم]، ص ٣١، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢ [نقلاً عن الزمخشري.. [الكشاف] جـ ٢ ص ٤٣٤ طبعة محمد مصطفى ـ القاهرة ـ].

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢ [نقلاً عن ابن الأثير. [التاريخ] جـ ٣ ص ٤٣ طبعة محمد مصطفى ـ القاهرة ـ سنة ١٣٠٣ هـ].

حتى إذا جاء عمر بن عبد العزيز [٦٢ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٢٠ م] رضي الله عنه، فصادر أموال بني أمية المغتصبة من المسلمين، وردها جميعاً إلى بيت المال، ثروة عامة، ففزع وجوه أسرته إلى عمته «فاطمة بنت مروان» لتحدثه في ذلك، أجابها بقوله: «إن الله تعالى بعث محمداً رحمة - لم يبعثه عذاباً - إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده.. فترك لهم نهراً شِرْبهم فيه سواء، ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه، فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً، ثم ولى معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه «يزيد» و«مروان» و«عبد الملك» و«سليمان»، حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود النهر الأعظم إلى ما كان عليه!»(١).

بل لقد اعتبر عمر بن عبد العزيز جواهر زوجته جزءاً من المظالم المغتصبة من الأمة فقال لها: «إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلى وجوهر إلى بيت مال المسلمين، فإنه لهم!. فردته جميعه»(٢).

فإذا جاءت حركة التصوف الفكري والفلسفي والعملي التي

---

(١) د. ضياء الدين الريس [الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] ص ٢٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م [عن الأغاني جـ ٩ ص ٢٥٥ - ٢٥٦. وابن الأثير جـ ٥ ص ٢٤].

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٤ [عن [الكامل] لابن الأثير جـ ٥ ص ١٦].

نهضت بروحانية الإسلام، وكانت نموذجاً فكرياً خصباً في كثير من جوانبها، نجد المتصوفة يشبهون المال بالماء، ويرون «أن الماء لا يشرب منه أكثر من الحاجة، فأقوياء النفوس الصالحون لا يشربون من الماء أكثر من حاجتهم، وينفرون مما وراءها، ولا يجمعون المال في القرب والروايا يدورون بها معهم، بل يتركونه في الأنهار والبراري للمحتاجين إليه!»[1].

فإذا ما جاء الكواكبي وتحدث عن أن «المال يُسْتَمَدّ من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها، ولا يملك، ولا يتخصص بإنسان إلا بعمل فيه أو في مقابله» أحسسنا أنه امتداد مجيد لتراث مجيد في هذا الباب، ولم نشعر بأي نوع من الشذوذ أو الغرابة لأفكاره هذه العملاقة التي قدمها في هذا الميدان.

ومن هنا كانت منطقية حديث الكواكبي عن الاشتراكية كنمط حياة وأسلوب معيشة أصيل عندنا، وأننا أحق ببعثه وتطبيقه من غيرنا، وأن أوربا هي التي تسعى إلى صنع مثل ما مرت بحياتنا السابقة أصوله وبذوره وأولياته في يوم من الأيام، فيرى «أنه إذا عاش المسلمون مسلمين حقيقة أمنوا الفقر، وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم، الذي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الأفرنجي، وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها، مع أنه

---

(١) أمين الخولي. [في أموالهم] ص ٩٨ ـ ٩٩ [نقلاً عن [إحياء علوم الدين] للإمام الغزالي جـ ٤ ص ١٦٦ طبعة الحلبي ـ القاهرة ـ].

نسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكونة من ملايين، باسم «كومون» و«فنيان» و«نيهلست» و«سوسيالست».. ومع أن لها نوعاً من الأصل، في الإنجيل، وهو تخصيص عشر الأموال للمساكين»[1].

فإذا كان الكواكبي قد كتب ما كتب في هذا الموضوع قبل أن يقوم في عالمنا العربي أي تنظيم يتبنى الدعوة إلى الاشتراكية، بل قبل أن تقوم في العالم كله حكومة تعتمد الاشتراكية منهجاً ونظاماً في الحياة، فليس سوى تراثنا الثوري الزاخر بالكنوز، والمنفتح على مختلف الثقافات والحضارات، والعبقرية التي تحلى بها مفكرنا الكبير، مصادر أساسية لإبداع ما أبدع في حديثه عن قضايا الاشتراكية ومعضلات المال والاقتصاد.

* * *

ولا يحسبن إنسان أن هذا الغنى الذي يزخر به الفكر العربي الإسلامي في موضوع العدل الاجتماعي، والاشتراكية، والمساواة بين الناس، والذي ورثه الكواكبي ووعاه، وأصبح خير امتداد له وأجود تطوير، لا يحسبن إنسان أن في ذلك ما يقلل من عبقرية الكواكبي، ويغض من المكان السامق الذي كان من الممكن أن يحصل له لو لم يحفل تراث أمتنا بهذا الغنى والثراء في هذه الميادين، لأننا إذا نظرنا إلى عصر الكواكبي، وكذلك إلى

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٢٦٧، ١٧١.

معاصريه، وخاصة من الرواد والأعلام والمجددين، نجده أكثر من سواه قد قام ببلورة بنيان فكري أصيل في هذا الموضوع، وتقديم صياغات نظرية محددة في هذا الباب.

فكثير من الذين عاصروه، بدءاً من الأستاذ الإمام محمد عبده [١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] إلى السادة محمد رشيد رضا، ومحمد كرد علي، والمويلحي [١٨٤٦ - ١٩٠٦ م]، ثم مصطفى كامل [١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] وجاويش [١٨٧٦ - ١٩٢٩ م] وغيرهم من رواد ذلك التاريخ، كلهم قد ورثوا - مع الكواكبي - كنوز هذا التراث وصفحاته، ووعوا، بدرجات مختلفة، آياته ومراميه، ولكن عبد الرحمن الكواكبي، أكثر من هؤلاء جميعاً هو الذي لم يتمثل فقط روح هذا الميراث الفكري الاجتماعي، بل أضاف إليه في إفاضة وتفصيل، وواءم بينه وبين العصر الحديث، وعالج قضايا الساعة ومشكلات الحياة الاجتماعية الحاضرة على ضوء كليات هذا التراث وعمومياته، واستعان بروح التجربة الإسلامية الأولى، التي اعتمدها سابقة تاريخية ودستورية وروحية، في صياغة قوانين العدل للمجتمع الذي عاش فيه.

* * *

وإنه على الرغم من أن الكواكبي قد راعى في صياغة فصول كتابه [طبائع الاستبداد] ألا يحدد صراحة، وبالاسم، أنه إنما يحارب الدولة العثمانية، وأنه يدعو إلى الثورة عليها مواطنيه العرب الذين يعيشون تحت نير سلطانها، كما فعل ذلك صراحة

في [أم القرى]، وذلك لاعتبارات سياسية أحاطت بنشر هذا الكتاب فصولاً ومقالات في صحيفة «المؤيد» المصرية، إلا أننا لا نحس أن هذا الإطلاق وذلك التعميم الذي يقابلنا أحياناً قد أخل بدقة الكواكبي في تشخيص الداء الاجتماعي، ووصف الدواء للبرء منه والخلاص من آثاره.

فأنت لا تحس تعمياً يجعلك تـظن الرجـل يكتب لكل المجتمعات، ويحيك ثياباً يمكن أن ترتديها أية أمة من الأمم، وإنما أنت تحس أن قضايا الأمة العربية، ومشاكل وطنها الكبير تتجسد أمامك في كل صفحة من صفحات [طبائع الاستبداد]، وأن جور العثمانيين وطغيانهم، ومظالم الإقطاع الذي يتربع على قمته سلطانهم تطالعك في كل الفصول.

وقدرة الكواكبي على تخطي هذا القيد، الذي عبر من خلاله، ورغماً عنه، دون أن يخل بالوضوح والحسم والتجسيد، هي الأخرى أسهم جديدة تضاف إلى أسهم عبقريته ونضوجه، وشهادة تؤكد عمق الإضافة الجادة والجديدة التي أضافها مفكرنا الكبير إلى الفكر العربي الإسلامي عموماً، وفي باب العدل الاجتماعي، والاشتراكية على وجه الخصوص.

في التجديد الديني

[الإسلام دين الفطرة.. وهو مبنى على العقل المحض... والقرآن لا يكلف الإنسان الإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذره وينهاه عن الإيمان إتباعاً لرأي الغير أو تقليداً للآباء...

وما أحوج الشرقيين أجمعين إلى حكماء - لا يبالون بغوغاء «العلماء» الغفل الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء - يجددون النظر في الدين، فيعيدون النواقص المعطلة، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، عما يطرأ عادةً على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين..].

الكواكبي

من الأحاديث التي اتفق الحفاظ على صحتها، قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها»[1].

ولحسن الحظ فإن رأي المعنيين بدراسة قضية تجديد الدين، وبحث المجددين في الإسلام، قد استقر على أن «المجددين قد يتعددون في القرن الواحد، فيكون كل واحد منهم عاملاً في ميدان من ميادين الحياة العلمية والعملية، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر»[2].

وذلك لأن الأمر الذي لا شك فيه هو أن دارسي الكواكبي، والمنقبين عن وجهات نظره في الدين الإسلامي، لا بد أن يضعوه في سلسلة هؤلاء الأعلام المجددين لهذا الدين، ونحن نعلم أنه

---

(١) رواه: أبو داود، في [السنن].

(٢) أمين الخولي (المجددون في الإسلام) جـ ١ ص ١٦.

قد عاصر كوكبة من العلماء الأعلام، وأن منهم من عقد له الكثيرون لواء هذه المهمة التجديدية في ذلك الحين، وخاصة العلمين الكبيرين: جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، فكان ارتضاء الدارسين لهذا الموضوع تعدد المجددين في الزمن الواحد والقرن الواحد، مصدر سعادة لنا يتيح لنا، دون خروج عن قواعدهم في الدرس، أن نضع الكواكبي في المكان اللائق به بين الذين أسهموا بقسط وافر في مهمة تجديد الإسلام.

وليست تكفي في التدليل على قيام الكواكبي بهذه المهمة، نصوص نختارها ونقدمها في هذا الفصل، كنموذج للعمل الكبير الذي قام به في هذا الميدان، بل لا بد لدارس الكواكبي من تتبع هذه المواضع، وهي كثيرة، وعلى الأخص في كتابه [أم القرى] وأيضاً في [طبائع الاستبداد].

على أن الأمر الذي نود أن نجعله نقطة انطلاق لنا في هذا الحديث هو أن تلك التفرقة التي سبقت إشارتنا إليها، والتي ميز الكواكبي على أساسها ما بين «الإسلام» و«الإسلامية»، قد جعلته يرى في «الإسلامية» كنظام للحكم، وتجربة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، تجربة مفتوحة الذراعين لكل ما تأتى به الحياة، وأن سر خلودها وصلاحيتها الدائمة إنما هو في تطورها وتطويرها مع روح العصر ومقتضيات العمران، وملاءمتها الدائمة لقوانين المجتمع والكون والطبيعة، تلك القوانين التي رآها الكواكبي شاملة لكل شيء، ومنظمة لكل أمر، إذ «ليس في

الكون شيء غير تابع للنظام، حتى فلتات الطبيعة والصدف، التي هي مسببات لأسباب نادرة»[1].

* * *

ومن هنا فلا بد «للإسلامية» كي تحافظ على صلاحيتها للتطبيق، وفعاليتها في المجتمع من المضي مع التطور إلى الأمام، وبشكل دائم وأبدي، لأن «الحركة سنة عامة في الخليقة، دائبة بين شخوص وهبوط، فالترقي هو الحركة الحيوية، أي حركة الشخوص، ويقابله الهبوط، وهو الحركة إلى الموت أو الاستحالة أو الانقلاب. وهذه السنة كما هي عاملة في المادة وأعراضها، عاملة أيضاً في الكيفيات ومركباتها»[2].

ومن هنا فإن النظرة المستقبلية التطورية هي التي رأى الكواكبي فيها سر تجديد «الإسلامية» وتجددها، والحفاظ الدائم على صلاحياتها الدائمة للحياة.

* * *

أما الجانب الآخر، جانب «الإسلام» كدين، فإن الكواكبي، انطلاقاً من هذا التمييز، قد رأى أن سر تجدده وحيويته إنما يأتي من هذا «النزوع السلفي»، والعودة الواعية المستنيرة إلى المنابع النقية لهذا الدين، واطّراح ما علق به من بدع وتعقيدات

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٩٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٨.

وشبهات وخرافات وأساطير، ذلك لأنه [ما فرطنا في الكتاب من شيء]، أي مما يتعلق بالدين»[1].

فهو، كما قدمنا، يتحدث عن حاجة أديان الشرق جميعاً، ويذكر منها الإسلام صراحة، إلى من يجددها بإعادة النواقص المعطلة، وإزالة الزوائد الباطلة «مما يطرأ عادةً على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين»[2].

فهو هنا لا يقرر فقط ضرورة التجديد وأهميته، بل ويراه أمراً طبيعياً، ما دام طبيعياً كذلك أن تزحف على الدين بتقادم العهد أشياء غريبة عليه وبعيدة عنه، وأن التجديد هنا إنما يكون بالعودة والرجوع إلى المنابع الأصلية لهذا الدين..

والكواكبي هنا يوجز، في عبقرية، مهمة تجديد الدين، ورسالة المجددين.

ثم ينطلق بعد ذلك ليشير إلى المصادر والمنابع التي زحفت منها على الأديان تلك الأساطير والخرافات والزيادات، التي على المجدد أن ينفضها عن كاهل الدين، ليقدمه إلى الناس نقياً بسيطاً يغريهم بالتدين، ويصلح من نفوسهم، ويقوم بدوره البناء في الحياة.. فيذكر أنه «قد اكتشف العلماء الآثاريون (علماء الآثار) من الصحف والصفائح التي وجدت في نواويس المصريين

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٧.

الأقدمين على ماخذ أكثرها (أي على مصادر أكثر زيـادات المسيحية). وكذلك وجدوا لمزيدات «التلمود» وبدع الأحبار أصولاً في الأساطير والآثار والألواح الأشورية، وترقوا في التطبيق والتدقيق إلى أن وجدوا معظم الخرافات المضافة إلى أصول عامة أديان الشرق الأدنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الأقصى»[1].

ولقد حسب الذين يقفون ضد تجديد الدين، وضد إزالة هذه الخرافات عن أصوله المشرقة النقية أنهم يحسنون بذلك الجمود صنعاً إلى الدين؛ في حين أنهم قد أساءوا بذلك، لا إلى المؤمنين بهذه الأديان فقط، بل شوهوها أمام الغير، وأعطوا للطاعنين فيها فرص الطعن والهجوم، وذلك هو ما أشار إليه الكواكبي عندما تحدث عن اعتقاد «أكثر المحررين السياسيين من الأفرنج على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، والبعض القليل منهم يقول: إن لم يكن هناك توليد، فلا شك أنهم أخوان أو صنوان قويان، بينهما رابـطة الحاجـة على التعـاون لتذليـل الإنسان..» ثم يمضي الكواكبي فيعرض القضية عرض المنصف المجدد، فيقول: «الفريقان مصيبان في حكمهم بالنظر إلى أساطير الأولين، والقسم التاريخي من التوراة، والرسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون مطلقاً في حق الأقسام التعليمية الأخلاقية

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٠.

فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أن القرآن جاء مؤيداً للاستبداد السياسي»[1].

فالدين الذي يدافع عنه الكواكبي، والذي لا يرى فيه معيناً للاستبداد السياسي، ولا صنوا له، هو تلك القضايا والتعاليم التي احتواها القرآن الكريم، أو الأقسام التعليمية من التوراة والإنجيل، أما سائر الزيادات والإضافات، فإنه يراها، كما تقدم، «مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لحكماء الشرق الأقصى».

ومن هنا فإنه يحدد المنبع الأصلي الذي يجب على المجدد أن يحتمي بحماه ليقدم لأبناء دينه الدين الحق المبرأ من الزيف والإضافات.

وإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم لنستقى منه تعاليم ديننا، فإن وحدة هذا المصدر، ونقاءه، ووضوحه، وغناه، ستجعلنا نصدر من حول هذا المورد ونحن متحدين، وإذن فسيكون في ذلك أفضل علاج نرأب به الصدع، ونتخطى هذه الفرقة والفرق والشيع والأحزاب التي بدأت سياسية ثم ما لبثت إن لبست ثوب العقيدة الدينية لتضمن لها القدسية والخلود، ولأصحابها الانتصار، فيجب «أن نترك جانباً اختلاف المذاهب التي نحن متبعوها تقليداً، فلا نعرف مآخذ كثير من أحكامها، وأن نعتمد

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤١.

ما نعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت الإجماع، وذلك لكيلا نتفرق في الآراء، وليكون ما نقرره مقبولاً عند جميع أهل القبلة»[1] وأن نجتمع على ما نفهمه من النصوص، أو ما يتحقق عندنا حسب طاقتنا أنه جرى عليه السلف وبذلك تتحد وجهتنا»[2].

ومن هنا كان قرار المندوبين الذين «جمعهم» الكواكبي في كتابه [أم القرى] بالنسبة «للجمعية» التي أقاموها، أنها «لا تنتسب.. إلى مذهب أو شيعة مخصوصة من مذاهب وشيع الإسلام مطلقاً!»[3].

* * *

ولا ينسى الكواكبي أن يقول، ويكرر الإشارات إلى المضار التي تلحق العقيدة الدينية من إصرار بعض الحكام على خلط «الدين» «بالنظام السياسي للحكم»، على حين أن الكثيرين منهم لا يتراؤون بالدين إلا بقصد تمكين سلطتهم على البسطاء من الأمة!»[4].

وعن المضار التي تلحق العقيدة من نفوذ المتجرين بالدين، الذين يريدون لسلطانهم أن يمتد إلى كل نواحي الحياة، بينما «لا

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤١.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٤١.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥.

يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقـامة الدين»[1].

بينما نجد بعضهم في المواقف الهامة والحاسمة «إما جبناء يهابون الخوض فيه (أي في وصف علاج الفتور في الأمة) وإما مراؤون مداجون يأبون أن تخالف أقوالهم أحوالهم»[2].

بل هو يرى في محاولات بعض الحكام وبعض أدعياء الدين الربط بين السلطة السياسية وبين الدين، ما يوجد خلطاً لدى العوام يفسد عليهم عقيدتهم، كما فسدت عليهم حياتهم الدينية بالاستبداد، وذلك عندما لا يفرقون مثلاً بين «الفعال المطلق» و«الحاكم بأمره»! وبين «لا يسـأل عما يفعل» و«غير مسؤول»! وبين «المنعم» و«ولي النعم»! وبين «جل شأنه» و«جليل الشأن»! بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيم الله»[3].

كما أن محاولات الخلط هذه إنما تجر الناس إلى «عقيدة» تجعل ولاءهم للحكام، بينما «أن مبنى ديننا على أن الولاء فيه لعامة المسلمين»[4].

كما يرى الكواكبي في هذا الخلط الضار ما يجعل المتاجرين

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٤١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥

بالدين، وكذلك أهل الاستكانة والخنوع، يستخدمون العقائد الضارة الغريبة عن الإسلام وروحه الثورية في إشاعة الكسل والتواكل والاستسلام للظلم والاستبداد، فيصبح «الأسير المعذب المنتسب إلى دين يسلي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعدها بجنان ذات أفنان، ونعيم مقيم أعده الرحمن، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وأنه ربما كان خاسر الصفقتين!».

ثم يمضي الكواكبي فيقول: «ولبسطاء الإسلام مسليات أظنها خاصة بهم، يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: الدنيا سجن المؤمن!. المؤمن مصاب!. إذا أحب الله عبداً ابتلاه!. هذا شأن آخر الزمان!. حسب المرء لقيمات يقمن صلبه!» ثم يعلق على مثل هذه «العقائد» الضارة فيقول: «ويتناسون حديث: «إن الله يكره العبد البطال» والحديث المفيد: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها»، ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفها وزينتها، وأين ذلك بعد؟!»[1].

بل إن الكواكبي ليلمس نقطة هامة عندما يميز بين نوعين من تعاليم الدين: الأخلاق، والعبادات، ويرى وجوب الاهتمام بالأخلاق، لأثرها الفعال في المجتمع، وبالذات في مقاومة الاستبداد، كما يرى أن «الاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه، أي الأخلاق، وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه في

(١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

الأكثر! ، ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً»[1].

* * *

فليس الدين في نظر مفكرنا سوى هدي سماوي يُحَكِّمه الإنسان في علاقاته بربه وأخوته، وهو هدي يربي في الإنسان كل الملكات الطيبة والخيرة، ويصلح من نفسه، ويساعد في تكوين الإرادة الحرة التي بلغ من حرص الكواكبي على تربيتها وتقويتها، أو صلاح شأنها، حد حكايته أنه قد «قيل: . . لو جازت عبادة غير الله، لاختار العقلاء عبادة الإرادة!»[2].

وهي تلك الملكة التي تحدث مفكرنا الكبير كذلك عن دور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تربيتها وتقويتها لدى أممهم عندما «اجتهدوا في تنوير العقول بمبادىء الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله»[3].

وفرق كبير بين موقف الكواكبي من هذه الأشياء، وبين موقف الذين يصدرون عن ركام من البدع والخرافات والإضافات التي لبست زوراً وبهتاناً ثوب الدين، وهو الفرق بين المجدد للدين وبين الذين لا بد أن يكتسحهم هذا التجديد!.

---

(١) المصدرالسابق، ص ١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.

في التربية

[الإقناع، في التربية، خير من الترغيب.. فضلاً عن الترهيب.... والتعليم، مع الحرية بين المعلم والمتعلم، خير من التعليم مع الوقار!... والتعليم عن رغبة في التكمل أرسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة، أو غيرة من الأقران!...

والتربية: تربية الجسم وحده إلى سنتين، وهي وظيفة الأم وحدها. ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معاً. ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس. ثم تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولا بد أن تصحب التربية بعد البلوغ تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية، وتربية القانون، أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.]

الكواكبي

نستطيع أن نقول، دون أن نتهم بالمبالغة، أن الأفكار والآراء التي كتبها الكواكبي، والتي يمكن أن تجمع تحت عنوان «التربية»، جديرة بأن تكون موضوعاً لرسالة ينال بها صاحبها درجة «الماجستير» أو «الدكتوراه» من إحدى كليات جامعاتنا، ومن «كلية التربية» على وجه الخصوص.

وذلك لكثرة هذه الآراء والأفكار، وتنوعها، وغناها بما هو عبقري ومفيد في هذا الباب.

كما نستطيع أن نقول أيضاً إن الكواكبي، الذي عاش وكتب منذ قرن من الزمان، عندما يكتب عن التربية، فإنه يتحدث بلغة عصرنا نحن،. بل وبأحدث المفاهيم التربوية التي ندرسها اليوم.

وهو في هذا الصدد يقدم لنا مجموعة من الأسس التي يدعو المجتمع إلى اعتمادها في تربية الجيل الجديد، والتي يراها ضرورية لبلوغ الأهداف التي تصبو إليها الأمة من وراء هذه التربية، وتحقيق الأهداف التي تريد تحقيقها من هؤلاء الشباب.

١ ـ فهو يؤمن بأن التربية عملية اجتماعية، تلعب فيها الظروف المحيطة، والملابسات التي تكتنف حياة الشباب، دوراً حاسماً وأساسياً، سواء في تقدمها أو في إعاقتها عن بلوغ الأهداف.

وفي الكلمة التي صدرنا بها هذا الفصل، أجود تعبير وأصدقه عن فكرة الكواكبي في هذا الموضوع، حيث التربية عملية كبرى تشارك فيها الأسرة والمدرسة، والزوجان كل منهما للآخر، والظروف المحيطة، والهيئة الاجتماعية، والقانون، والسلوك السياسي السائد في المجتمع الذي يتعلم ويتربى فيه الإنسان.

ولو كان الكواكبي حياً اليوم، وأخذ يفصل ويفيض ويقدم الأمثلة لإيضاح هذا المبدأ الذي قرره، لحدثنا عن صلة المسكن، ووسائل المواصلات والنقل، وقوانين الأحوال الشخصية بنتائج الامتحانات في مدارسنا ودور العلم عندنا، والعلاقة بين وسائل الأعلام وكرة القدم وبين نوعية الاهتمامات التي تسيطر على عقول الشباب. إلى غير ذلك مما يجسد العلاقة الأكيدة بين البيئة وبين التربية التي يصيبها الشباب في إطارها.

٢ ـ كما يدعو الكواكبي فلاسفة التربية ورجال التعليم إلى إقناع الشباب، والناس عموماً، والاعتماد على التشويق كسبيل لهذا الإقناع والاقتناع، بدلاً من صب المعلومات في عقول ونفوس لا تريد استيعابها بأي حال من الأحوال، أو إكراهها على الاستيعاب، فهو يحكي ـ وفي ذهنه كل المجتمع لا المدارس

فقط ـ كيف «أجمع علماء السياسة والأخلاق والتربية على أن الإقناع خير من الترغيب، فضلاً عن الترهيب. وعلى هذه بنوا قولهم: إن المدارس تقلل الجنايات، لا السجون. ووجدوا أن القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس، كما قال الحكيم العربي:

لا ترجع الأنفس عن غيها
ما لم يكن منها لها زاجر»[1]

وعندما يجيء ذكر قانون [جمعية تعليم الموحدين] في قرارات مؤتمر [أم القرى] نجد الكواكبي يتحدث في الهدف السادس عن الدواء، الذي يقسمه إلى شقين:

«أولاً: تنوير الأفكار بالتعليم.

ثانياً: إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة»[2].

٣ ـ كما يتناول الكواكبي قضية التخصص التي نتحدث عنها اليوم، بنظر عبقري وفكر ثاقب، فيدعو إليه، بل يفصل الحديث حول قضاياه.

فهناك تخصص في مراتب التعليم، بمعنى التدرج والتمايز على أساس من تدرج مراتب المعلمين والمتعلمين، يتحدث عنه

---

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٥.

الكواكبي بأنه: «الاهتمام في جعل المتعلمين والمعلمين على أربع مراتب:

١ ـ العامة: ومعلموها أئمة المساجد والجوامع الصغيرة.
٢ ـ المهذبون: ومعلموهم مدرسو المدارس العمومية، والجوامع الكبيرة.
٣ ـ العلماء: ومعلموهم مدرسو المدارس المختصة بالعلوم العالية.
٤ ـ النابغون: ومعلموهم الأفاضل المتخصصون[١].

وهناك تخصص من قبل المدرس والمدرسة حول نوع واحد أو نوعين من فروع التعليم، يتحدث عنه الكواكبي ضمن حديثه عن وظائف [الجمعية] التي أقامها مؤتمر [أم القرى] فيقول: «تخصص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون، ليوجد في الأمة أفراد نابغون متخصصون»[٢].

أما تخصص هؤلاء الأفراد الذين يريدهم الكواكبي لأمته فإنه يتحدث عنه بقوله: «إن الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط، يتولع فيه فيتقنه حق الإتقان، كما قال تعالى: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾[٣]. فالعاقل من يتخصص

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٥.
(٣) الأحزاب: ٤.

بعمل واحد، ثم يجاوب نفسه عن كل شيء غيره: «لا أدري ولا أقدر»[1]..

٤ ـ كما يلفت الكواكبي الأنظار إلى ضرورة التخطيط للتربية، والتخير الواعي لأنواع العلوم والمعارف التي نربي بها الشباب، وضرورة الاهتمام بالعلوم والمعارف التي تمثل الأسلحة التي تحتاج إليها الأمة في المرحلة الراهنة من حياتها، والتي قد تتفاوت وتتبدل بتفاوت المجتمعات وتبدل أحوالها، ونحن نستطيع أن نضع يدنا على وجهة نظر الكواكبي هذه ونحن نقرأ حديثه عن نظرة المستبد إلى المعارف والعلوم، عندما يقرر أن **«المستبد لا يخشى علوم اللغة المقومة للسان، إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يفل الجيوش. وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم، فإذا نبغ فيهم البعض، ونالوا شهرة بين العوام، لا يعدم وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره بنحو سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد!».**

«نعم، ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة، مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، وغيرها من العلوم الممزقة

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٧.

للغيوم، المبسقة الشمـوس، المحرقة الرؤوس!»[1].

وبعد هذه الأسس، وشبهها، التي يقدمها الكواكبي في أثناء أحاديثه عن التربية والتعليم، نجد عنده كذلك مجموعة من الملاحظات الهامة، سواء منها التي ينقد بها الجوانب السلبية في حيـاتنا التـربويـة، أو التي يقدمهـا كعوامـل إيجابيـة ينصح باستخدامها لفائدتها الأكيدة في هذا الميدان.

١ ـ فليـس الكواكبي ثغرة هامة وهائلة في نظامنا التربوي، بل مقتلاً دامياً، في موقف المجتمع من المرأة وتعليمها، وهو عندما يعالج قضية المرأة عموماً، وقضية تعليمها وتربيتها بخاصة، إنما يقدم أفكاراً عميقة وناضجة وواقعية في هذا الموضوع.

فهو يرى أن «هذه القسمة المتفاوتة بين آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة، هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي!»[2].

٢ ـ وهو بذلك يبرىء الدين الإسلامي من تبعة الأفكار الرجعية التي أراد أعداء تحرير المرأة تحميله إياها، كما يجرد هؤلاء الأعداء من الثياب الخادعة التي زعموها ثياب فضيلة ارتدوها في معركتهم ضد إعطاء المرأة ما لها من حقوق وتكليفها بما تطيق من مسؤوليات.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

بل هو يمضي في حديث الفضيلة هذا إلى ما هو أبعد من ذلك ليثبت عكس ما يريد الرجعيون إشاعته حول ارتباط تعليم المرأة وخروجها إلى الحياة الاجتماعية بشيوع الانحلال والفجور، فيتحدث عن «أن لانحلال أخلاقنا سبباً مهماً آخر يتعلق بالنساء، وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا».. ثم يقول: «ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة، ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة!»[1].

وواضح أن إمكانية وقوع الفجور من «الأجسر» أكثر منها لدى «الأقدر» بفارق كبير!.

ويمضي الكواكبي كذلك إلى ما هو أعمق مما تناول معاصروه المتقدمون من حديث حول مضار أمومة المرأة الجاهلة، ومغبة ذلك على الأبناء الذين تقوم بتربيتهم وتنشئتهم، فيكشف لنا عن ضررهن كذلك على الأزواج، فضلاً عن الأبناء، فإذا كان «ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان، فإن سوء تأثيره على أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث، فأقول: إن الرجال ميالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقدر مطلقاً من الرجل في ميدان التجاذب للأخلاق، ولا يتوهم عكس ذلك إلا من استحكم فيه تغرير زوجته له، بأنها ضعيفة مسكينة مسخرة لإرادته، حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغره أنه أمامها

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٨.

وهي وراءه تتبعه، فيظن أنه قائد لها، والحقيقة التي يراها كل الناس من حولها، دونه، أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق، لا تابع؟!»[1].

وإلى جانب ما في هذه الصورة من طرافة وتعبير تصويري جميل، فإن فيها حقيقة موضوعية تعيش في كثير من الأوساط، ويعيشها كثير من الناس!.

ولم تكن عناية الكواكبي فقط بالمرأة من زاوية المدارس والتعليم، بل لقد كان يرى في العمل بالنسبة للمرأة تدعيماً لنهضة المجتمع، كما هو جزء أساسي من مهمة التربية والتعليم. وعندما يلمس قضية العمل هذه، نراه يفضل المرأة الريفية، ثم البدوية على الحضرية والمدنية المتبطلة، ويرى في الأخيرة عاملاً سلبياً في الحياة والحضارة، ونقطة ضعف في سعي الإنسان نحو التقدم والكمال، فهو يتحدث عن «أن البشر، المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون، نصفهم كَلٌّ على النصف الآخر، ويشكل أغلبية هذا النصف نساء المدن!... ولهذا سماهم بعض الأخلاقيين بالنصف المضر!، وقال: إن الضرر يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف، فالبدوية تسلب الرجل نصف ثمرة أعماله، والحضرية تسلب اثنين من ثلاث، والمدنية تسلب خمسة من ستة، وهكذا تترقى بنت العواصم!»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٩.

٣ ـ ثم يتقدم الكواكبي في ملاحظاته واقتراحاته في ميدان التربية والتعليم ليدلي بدلوه في قضية هامة، لا تزال حتى يومنا هذا مجال صراع وموضوعاً لمعركة حامية بين عديد من الاتجاهات، ألا وهي قضية اللغة العربية التي نتعلم بها ونتعلمها في المدارس والمعاهد والجامعات، وهل تظل طرق تدريسها على ما هي عليه، أم تتطور هذه الطرق؟ . . وما هو المدى الذي يمكن أن تقترب نحوه هذه اللغة الفصحى من اللغة التي يتحدث بها الناس في حياتهم اليومية؟ . . وهل من الممكن أن نعلم الناس أكثر من مستوى من مستويات اللغة، حسب اختلاف المستوى الثقافي والفكري لهؤلاء المتعلمين؟ . .

إن الكواكبي يتحدث، بجرأة محمودة، في هذه الموضوعات . . .

فهو يقطع، باديء ذي بدء، بضرورة إصلاح وسائل تعليم اللغة العربية، وأهمية هذا الإصلاح، ومع دعوته وطلبه «الجد وراء توحيد أصول التعليم وكتب التدريس»[1] في الوطن العربي كله، نراه يجعل من وظائف [الجمعية] التي أقامها مؤتمر [أم القرى]: «تعميم القراءة والكتابة، مع تسهيل تعليمها»[2].

فكأنه يعلم الذين يتحدثون كثيراً عن محو الأمية و«تعميم

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٥.

القراءة والكتابة» ضرورة ارتباط ذلك «بتسهيل تعليمها»، وهي قضية لم ننتصر فيها حتى هذه اللحظات.

ثم يمضي ليتحدث عن ضرورة «إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية وتسهيل تحصيلها، بحيث يبقى في عمر الطالب بقية يصرفها في تحصيل الفنون النافعة»(١).

ولذا فهو يرى في علوم اللغة وسيلة يجب ألا تستغرق عمر الإنسان فتصرفه عن الغاية، التي هي الفنون النافعة الأخرى، وهو يضرب لذلك أمثلة من الواقع تدعم وجهة نظره هذه، فيذكر كيف أن المستشرقين «كلهم يحسنون العربية أكثر من علماء الإسلام غير العرب، مع أنهم يشتغلون في علوم اللغة عمرهم كله، وما ذلك إلا من ظفر مدارس اللغات الشرقية الإفرنجية بأصول لتعليم العربية أسهل من الأصول المعروفة عندنا»(٢).

إنها قضية طرحها الكواكبي، وجعلها من أهداف جمعيته منذ ثلاثة أرباع القرن، ولا تزال مطروحة دون حل حتى الآن!.

وهذه القضية التي يتحدث عنها المهتمون بالتوسع الأفقي في ميدان التربية والتعليم، والذين يخططون لمحو الأمية وتثقيف جماهير العمال والفلاحين، والتي قيل إن الصين، بعد تحريرها، قد قامت بتنفيذها، عندما وضعت الكتب الثقافية المبسطة ذات

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٢.

الثمن الزهيد، التي تباع في الأسواق الريفية وفي مراكز العمل والإنتاج.. هذه القضية قد تحدث عنها الكواكبي كذلك، كمهمة من مهام جمعيته التي يجب أن «تقوم بوضع مؤلفات اللغة، وسطى عربية، لا مضرية ولا عامية، وجعلها لغة لبعض الجرائد ومؤلفات الأخلاق ونحوها مما يهم نشره بين العوام فقط، ثم يضرب أمثلة فنية لهذه التسهيلات التي يجب أن تجري في هذه «اللغة الوسطى» مثل «الاكتفاء بالسين عن الثاء، والزاي عن الذال، والاقتصار على التثنية بالياء، والجمع بالواو والنون، والقصر بالألف، وكقبول الوضع العامي المشهور»[1].

٤ ـ ولم يكن الكواكبي المناضل يرى في المدارس والمعاهد الدور الوحيدة الكفيلة بتحقيق ما يريد في هذا الباب، بل إنه، بحس المناضل الثائر، قد أبصر الدور الفعال للصحافة في ميدان التربية، وكانت يومئذ السبيل الوحيد الموجود من سبل الأعلام.

كما كان، يحس المناضل الثائر كذلك، ينفر من ذلك «السلام» المصطنع الذي يقوم أحياناً والذي يريده البعض، بين أنصار القديم والجديد، وبين القيم البالية وما تولده الحياة الجديدة من مثل وأفكار، بل لقد كان يرى في هذه المعارك التي تدور بين «الناشئة» وبين «الواهنة» سر حيوية الأمة وتقدمها، «ومن راجع تواريخ الأمم التي استرجعت نشأتها، والدول التي جددت

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٧.

عصبيتها، يجد من حكمائها ونجبائها مثل حسان قريش، وكميت العباسيين، ولوثر الألمانيين، وفولتير الفرنساويين، قد تغلبوا على الفكر الواهن وأنصاره من الأشراف والشيوخ وأهل العناد والفساد بحمل لواء الناشئة وإثارة حرب أدبية حماسية بين الفئتين» [1].

أما دور الصحافة، بل و«النكتة»، وأيضاً «الكاريكاتير» في هذه المعركة بين «الناشئة» و«الواهنة» فيتحدث عنه الكواكبي بقوله: «ليت الشيوخ والكبراء يرضون بما كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة، والخمول وسقوط الهمة، والدناءة والاستسلام، فيتركون أهل النشأة الجديدة وشأنهم، لايستهزئون ولا يعطلون، ولا يسفهون ولا يثبطون. وما أظنهم بفاعلين ذلك أبداً إلا أن تتصدى لهم جرائد مخصوصة تقابلهم باللوم والتبكيت، وتسلط عليهم أقلام الأدباء والسنة الشعراء بوضع أهاجي وأناشيد بعبائر بسيطة، محلاة بنكت مضحكة، لكي تنتشر حتى على السنة العامة. وبمثل هذا التدبير تثور حروب أدبية بين الناشئة والواهنة، لا تلبث أن تنتهي بانكسار الفئة الثانية» [2].

* * *

وإذا كنا نبهر اليوم لعمق الأسس التربوية التي حدثنا عنها الكواكبي، ولروعة الملاحظات التي سطرها في هذا الميدان،

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣١، ٣٣٢.

فعلينا أن نعرف أن مرجع ذلك، إلى جانب عبقرية الرجل، هو دراسته الواعية العميقة للواقع التربوي الذي عاش فيه.

فالكواكبي «الشريف»، «التاجر»، «رجل الدولة»، سليل «الحسب والنسب والجاه»، قد غاص بفكره في أعماق المجتمع، ودرس جزئياته حتى استطاع أن يقدم لنا لوحات فنية تصور واقعه ونواقصه وسلبياته، إلى جانب أسس الإصلاح والثورة التي أبدعها وأرادها لهذا المجتمع الذي عاش فيه.

ومن هذا الواقع التربوي البائس الذي أراد الكواكبي الثورة عليه، يقدم لنا قلمه صورة فنية للبيئة ينشأ فيها و«يتعلم» ملايين من المواطنين، «فكيف ينشأ الأسير (المستعبد) في البيت الفقير، وكيف يتربى؟؟.. إنه يلقح به، وفي الغالب أبواه متناكدان متشاكسان، ثم إذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فتشتمه، أو ازدادت آلام حياتها فضربته؟.

وإذا ما نما ضيقت عليه مقره لألفتها الانحناء خمولاً أو جهلاً أو صغاراً، أو التقلص لضيق الفراش!.

ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً أو جهلاً!.

فإذا بكى تألماً سدت فمه بثديها، أو قطعت نفسه بدوار السرير، أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب!.

فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه!.

فإن كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت!.

فإن سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه!.

فإذا قويت رجلاه، يدفع به خارج الباب، إلى مدرسة الألفة على القذارة وتعلم صيغ الشتائم أو السباب!.

فإن عاش ونشأ، وضع في مكتب أو عند ذي صنعة، ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح!.

فإذا بلغ الشباب، ربطه أولياؤه على وتد الزواج، كي لا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة، ويجنى على غيره كما جنى عليه أبواه!.

ثم هو يتولى التضييق على نفسه حتى بتثقيل الثياب المانعة حرية حركة جسمة، ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله!.

وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة، في ضيق وضغط، يهرول ما بين وداع سقم واستقبال سقم، إلى أن يستقبله الموت مضيعاً دنياه مع آخرته، **فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه؟!!»**[1].

ولعل هذا الواقع البشع المؤلم الذي جسده الكواكبي في صورته الفنية الغنية هذه، هو الذي جعل الرجل، رغم إيمانه الذي لا يحد بضرورة التربية والتعليم والثقافة للجميع، يخشى، أحياناً، على هؤلاء (الأسراء) المستضعفين من تلك الآلام التي

(١) المصدر السابق، ص ١٩٤، ١٩٥.

يحس بها المثقف لرهافة حسه أكثر من غيره، فيحبذ، في لحظات ضعفه هذه، ترك هؤلاء الأسراء أميين دون تعليم، فيقول: «ليت شعري، لماذا يتحمل الآباء الأسراء مشاق التربية!؟؟.. وهم إن نوروا أولادهم جنوا عليهم بتقوية إحساسهم، فيزيدونهم بلاء، ولهذا لا غرو أن يختار الأسراء الذين فيهم بقية من الإدراك ترك أولادهم هملاً تجرفهم البلاهة إلى حيث تشاء!!»[1].

ولكن الكواكبي، حتى وهو يقول هذا الرأي الغريب الساخر، إنما يقدم حججاً وتبريرات لعلها إن قرأها هؤلاء الآباء الأسراء، أو هؤلاء الأبناء الأسراء، أن تكون حوافز للتعليم والتربية، لا أسباباً ترجح العدول عنهما، ومن ثم فهي أقرب إلى المحركات الثورية منها إلى عوامل التثبيط والانصراف، لأنها إنما تقدم في إطار فكر تربوي ثائر، ومن علم من أعلام الثورة في هذا المجال.

(١) المصدر السابق، ص ١٩٤.

أسباب فتور الأمة الإسلامية

[من أسباب فتور المسلمين: تحول نوع السياسة الإسلامية، فلقد كانت نيابية اشتراكية، أي «ديمقراطية» تماماً، فصارت، بعد الراشدين، ملكية مقيدة، ثم صارت أشبه بالمطلقة...

ولقد أثبت الحكماء أن المنشأ الأصلي لشقاء الإنسان هو وجود السلطة القانونية منحلة، ولو قليلاً، لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصية أو أشخاصية عليها.....

ومن أعظم أسباب فقر أمتنا أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، لكن حكوماتنا قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء؟!..]

الكواكبي

وغير القضايا الكبرى التي تحدث عنها الكواكبي كعوامل «فتور» للعرب والمسلمين، وكمعوقات للتطور من قبل المستبدين، وهي التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، نجد الكثير من الأسباب والعلل التي يسوقها على السنة المندوبين الذين حضروا مؤتمر [أم القرى]، وفي خلال محاوراتهم في الاجتماعات، الأسباب والعلل التي يراها تلعب، بشكل أو بآخر، دوراً في بقاء «الفتور» في هذه الأمة، وتحول بينها وبين النهوض والانطلاق.

وقبل أن نشير إلى أهم هذه الأسباب المكملة لما أشرنا إليه في الفصول السابقة، نود أن نبرز ملاحظة هامة مؤداها أن إيمان الكواكبي، الذي لا يحد، بضرورة، بل حتمية نهوض هذه الأمة، قد جعله يفضل تعبير «الفتور العام» كوصف لمشاكل هذه الأمة ونواقصها، وسلبيات حياتها، رافضاً تعبير «الداء الدفين» أو «المزمن» أو «العضال».. ولذلك دلالته الأكيدة على تفاؤل الرجل وإيمانه بالمستقبل المشرق لهذه الأمة وهذا الوطن الكبير[1].

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٢٤٦.

أما أسباب هذا الفتور العام، التي تتم بإيرادها الصور التي رسمها الكواكبي للعرب والمسلمين ومستقبلهم، فإن أهمها ينحصر في:

١ ـ عقيدة الجبر والزهد، المفضية إلى التصوف:

فلقد دارت في محاورات الكواكبي بكتابه [أم القرى] الكثير من المناقشات حول مضار عقيدة الجبر، التي تتنافى مع جوهر تحرير الإسلام لإرادة الإنسان[١]، بل إن علاقة الدين بالحرية، عند الكواكبي، تجعله يرى في عقيدة الجبر النقيض لروح الإسلام وجوهره، فإذا كانت الحرية هي: «أن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله، لا يعترضه مانع ظالم.. فالحرية هي روح الدين، وينسب إلى حسان بن ثابت قوله:

وما الدين إلا أن تقام شرائع
وتؤمن سبل بيننا وهضاب»[٢]

وأما عن التصوف، فإنه على الرغم من انتشار البدع والخرافات والمنكرات في صفوف أدعيائه، على عهد الكواكبي، وعلى الرغم من أنه قد قامت «لهؤلاء المدلسين أسواق في بغداد ومصر والشام وتلمسان قديماً، ولكن لا كسوقها في القسطنطينية

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٩، ٢٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٢.

منذ أربعة قرون إلى الآن، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات، كأنها هي دين معظم أهلها، لا الإسلام»[1] وعلى الرغم من جريان «العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث!»[2].

على الرغم من هذه الصفات والأوصاف التي كالها الكواكبي للتصوف والمتصوفين، إلا أننا نراه يقوم هذه الحركة، وهذا اللون من ألوان الفكر بموضوعية لا تطغى عليها مفاسد المتصوفة بالقسطنطينية التي بلغت في الشعوذة والدجل حداً تعجز عن تجسيده الأوصاف.

فهو يرى أن أحد أسباب اللجوء إلى طريق التصوف هو تشدد المذاهب الشرعية في أحكامها، وتضييقها على الناس في أمور دينهم «فبهذا التضييق لا يرى المسلم لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان، الذين يهونون عليه كل التهوين»[3].

والكواكبي لا يبرر بذلك هذا اللون من ألوان التصوف، بل إنه يرى فيه شيئاً بعيداً كل البعد عن التصوف الحقيقي الذي شهده تطور الفكر الإسلامي، كحركة روحية بناءة، وثورة فكرية ذات خصب كبير.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

فهو يتحدث عن «أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين ـ وأين هم؟ ـ لفروا منهم فرارهم من الأسد! ، لأن ليس عند هؤلاء إلا التوصل بالأسباب العادية الشاقة، لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات، وتصفية القلوب من شوائب الشر في حب الدنيا، وحمل الطبائع بوسائل القهر، والتمرين على الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهي المضرة، وذلك طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية في الحياة الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة»[1].

ولا ينسى الكواكبي في هذا المقام، كصاحب نزعة سلفية مستنيرة في تجديد الدين وتطهيره، أن يثني على حركة سلفية ذات طابع صوفي كانت تجاهد يومئذ طغيان الأتراك ونفوذ الغرب الزاحف على بلاد الشمال الإفريقي، فيرى أنه «لا يؤخذ شيء على المرشدين الأولين: ولا على البعض النادر من المتأخرين، ولو من أهل عهدنا هذا، كالسادات السنوسية في صحراء إفريقيا»[2].

فسواء أكان الموقف بإزاء التصوف عموماً، كحركة فكرية ونشاط روحي، أو بصدد تقويم النشاط الصوفي المعاصر للكواكبي، نجده يتخذ الموقف الموضوعي الذي يميز بين ما هو ضار وما هو مفيد، بين ما هو سبب من أسباب الفتور في هذه

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

الأمة، وما هو عامل من عوامل الثورة والبعث والنهوض.

٢ ـ انعدام التنظيمات وفقدان الاجتماعات والمفاوضات:

وهو سبب من أسباب فتور الأمة وسلبيتها، عالجه الكواكبي على المستويين النظري والعلمي بشكل يدعو إلى التقدير والإعجاب.

فهو يشير إلى أن الدين الإسلامي قد أتاح للمؤمنين به فرصاً للقاء والتشاور وتبادل وجهات النظر واتخاذ القرارات، وذلك عن طريق اجتماع المسلمين لصلاة الجماعة، والجمعة، ومواسم الحج السنوية، وأن في ذلك رمزاً للسبيل الوحيد لإيقاظ الأمة من رقدتها، سبيل العمل الجماعي والاهتمام باللقاء والتشاور والتنظيم. ويعتبر «أن سبب هذا الفتور... هو فقدان الاجتماعات والمفاوضات، وذلك أن المسلمين في القرون الأخيرة قد نسوا بالكلية حكمة تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج!»(١).

أما فيما يختص بموقف الكواكبي من الجانب العملي التطبيقي في هذه القضية، فلقد عالجه علاج الرائد الذي يرسم الطريق، ويتقدم على الدرب العديد من الخطوات.. فهو قد جعل من

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

كتابه [أم القرى] السجل لمحاضر اجتماعات المندوبين الذين وفدوا على مكة في موسم الحج سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٩ م) ليجتمعوا سراً في دار استأجروها «في حي متطرف في مكة.. باسم بواب دافستاني روسي لتكون مصونة من التعرض، رعاية للاحتياط!»[١].

وهو قد جعل للمجتمعين أسماء سرية مستعارة، يتنادون بها، ويسجلونها في الأوراق، بل جعل لهؤلاء الأعضاء وأسمائهم «شيفرة» قوامها هذه الأرقام: [٢٢، ٤٥، ٥٨، ٣٥، ٦٦، ١٧، ٩٨١٢، ٥١٢٧، ١٣٨١، ٤٤٣، ٢٣٣١، ٥٦، ٨٦٧، ٩١٩، ٤٠٤، ٢٧، ٤٣٣٢٣، ٥٢٦، ٨٣، ٧٢٧، ٣٦٥، ٣٢٥٩، ٨٤١][٢].

ثم يمضي هذا المؤتمر في جلسات انعقاده، ومحاوراته ومشاوراته، ليتوج أعماله ببرنامج لتنظيم دائم، ولائحة تنظم أعماله، وبإقامة [جمعية] هي نواة لهذا التنظيم، حيث يسجل المجتمعون في أحد قراراتهم أنه قد «تقرر أن يكون تأسيس الجمعية الدائمة، ابتداءً في بور سعيد أو الكويت بصورة غير علنية في الأول»[٣].

وحين يتحدث الكواكبي عن أهمية الجمعية والتنظيم، وكيف

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥١.

أنها دليل مبشر بنهضة الأمة فإنه يرى «أن محض اجتماع جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشرات، خصوصاً إذا وفقها الله تعالى بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة، لأن الجمعيات المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمراً طويلاً يفي بما لا يفي به عمر الواحد الفرد، وتأتي بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد. وهذا هو سر ما ورد في الأثر من أن يد الله مع الجماعة»[1].

فالكواكبي هنا، كما هو في كل مرة يقف فيها إزاء سبب من أسباب فتور هذه الامة وتخلفها، يستخدم «حجج السلب» و«معاول الهدم»، وبراهين التفنيد، ثم يقدم الإيجابي من الحلول، ويرسم للناس طرق تخطي أسباب الفتور والمعوقات.

٣ ـ الإغراق في الشهوات الحسية، وكثرة النسل:

والكواكبي هنا يعبر عن شخصية فنان قد هذبت الثقافة مشاعره وأحاسيسه، وجعلت له من الاهتمامات والميول والرغبات أشياء أسمى وأهم من هذه السبل المغلقة التي يفرغ فيها الكثيرون حياتهم، وهم يحسبونها متعاً ولذائذ، غير مدركين أن هذه ليست المتع التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات؟!.

ومن هذا الإغراق في الشهوات الحسية، والحياة الجنسية،

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٣.

المنبعث عن الجهل وضيق الأفق، وفقدان الأحاسيس الفنية الراقية، تأتي الآثار التي يشكو منها الإنسان الفرد، والتي تشكو منها كثير من مجتمعاتنا المعاصرة، والمتمثلة في كثرة التناسل بدرجة تبتلع جهود التطوير والتعمير.

فهو يتحدث عن «أن الأولاد، في عهد الاستبداد، سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق!.. وغالب الأسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الإخصاب، وإنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية، التي يحرمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة، كلذة العلم وتعليمه، ولذة المجد والحماية، ولذة الإثراء والبذل، ولذة إحراز مقام في القلوب، ولذة نفوذ الرأي الصائب، إلى غير هذه اللذات الروحية».

«أما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت، وإلا فمزابل للنباتات، منحصرة في استفراغهم الشهوة، كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الأرض، وظيفتها توليد الصديد ودفعه!»(١).

وهو تصوير لحياة البطالة والإغراق في الشهوات، ليس هناك ما هو أبلغ منه، ولا أصدق، بل ولا أدعى للتنفير من مثل هذه الحياة.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٣، ١٩٤.

٤ ـ اختلال التوازن بين الدنيا والآخرة:

كما أبصر الكواكبي سبباً من أسباب فتور هذه الأمة، يتجلى فيما يمكن أن نسميه باختلال التوازن بين صورة الدنيا، وآمال الإنسان فيها، والقدر الذي يعطيه من جهده وطاقاته وإمكانياته لهذه الآمال، وبين الحياة الآخرة، وما يمنح صورتها من ثقة وأمل وجهد ورجاء.

فهو الذي ورث في تراث أمته ذلك الحديث المروي عن الرسول ﷺ، والذي يقول فيه: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وذلك الأثر الذي يعلم الناس الثقة في الحياة، والجد في بنائها وتزيينها وإعمارها، حتى ولو داهمت الإنسان نهايته، والعالم تحوله وتبدله.. فعليه أن يغرس غراسه، ويبذر بذوره، ويزرع ويعمر في هذه الدنيا دونما توقف أو تواكل أو انصراف.

وهو الذي شهد كذلك تلك الأفكار الغريبة عن الإسلام، و«العقائد» الضارة لدى كثير من المسلمين، والتي تتنكر لتقاليد «الإسلامية» الأولى في البذل والعرق والجهد، في ميادين القتال ـ زمن الحرب ـ لأن «الجنة تحت ظلال السيوف». وفي مجالات الإنتاج السلمي ـ زمن السلم ـ لان «اليد العليا خير من اليد السفلى» و«الله يكره العبد البطال». وفي مجالات العلم والفكر اللذين مجد الأثر الشريف رجالاتها عندما قال· «لمداد أقلام العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء».

شهد الكواكبي التنكر لتقاليد هذه «الإسلامية» عندما أصبح «من دأب الشرقيين ألا يفتكروا في مستقبل قريب، كان أكبر همهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط!»[1] مما أخل بالتوازن بين الصورتين، وأفسد حياة الناس الأولى، ومن ثم أفسد الإثنتين معاً في نظر الكواكبي، لأن مفكرنا الكبير قد قطع ـ كما سبقت إشارتنا ـ «بأن الدنيا عنوان الآخرة» وأن الذي يخل بالتوازن بينهما هو «خاسر الصفقتين» معاً؟![2].

بل إنه، إمعاناً في الربط بين الحياتين، يصور الثانية ذلك التصوير الفلسفي الجميل الذي يقول فيه: «ما أشبه الإنسان بعد الموت بالفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام، وبالمجرم الجاني إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملام وإيلام!»[3].

* * *

فهل بعد هذه الصور التي قدمها الكواكبي، والآيات التي خطها بقلمه والقضايا التي أثارها ونثرها في كتابيه الخالدين [أم القرى] و[طبائع الاستبداد]، شك في أننا بإزاء عبقرية نادرة، وبناء نضالي عنيد، وصرح من صروح الفكر العربي التقدمي

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص ١٩٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١٨٩.

جدير بالدرس المستفيض، والتقدير السامي، وأيضاً التقليد والاحتذاء؟.

إن القضايا التي أثارها الكواكبي، كأسباب للفتور عند العرب والمسلمين، إذا ما أضيفت إلى القضايا الكبرى التي كانت موضوع فصولنا السابقة، لهي جديرة بأن تمثل واحدة من أعمق الدراسات التفصيلية المتأنية التي تناولها باحث عربي مسلم، حينئذ، في هذه الموضوعات، كما تمثل كذلك نقطة انطلاق في أي تطور أو تطوير أو ثورة يراد لها أن تغير وجه الحياة.. وتكوين البشر في هذا الوطن العربي الكبير.

في الثورة

[لو ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة؟!..]

الكواكبي

وإذا كنا قد تتبعنا حياة الكواكبي ونضاله، وشهدنا كيف ملأ بهذه الحياة وهذا النضال عقل معاصريه، ووجدان عصره، ثم عشنا معه تلك القضايا الكبرى التي عالج فيها، وبها، مشاكل أمته، وعوامل تجديدها وتطويرها، فإن الحديث عن الوسيلة التي آمن بها الكواكبي طريقاً لتنفيذ أهدافه وتطبيق مبادئه هو خير ما نختم به هذه الفصول الباحثة عن فكر الكواكبي وآرائه..

ونحب أن ننبه بادىء ذي بدء إلى أن تحديد هذه الوسيلة التي رآها الكواكبي، ودعا إليها، هو أمر موضع خلاف بين دارسيه، كما نود أن نقول بأن للخلاف هنا مبرراته، وأنه ليس متنافراً مع وضوح وجهة نظر الكواكبي، كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن موقفه من قضية العروبة والقومية مثلاً، لأن الكواكبي هنا من الممكن، بل من الحتمل جداً، ألا يُفْهَم فهماً جيداً وسريعاً، كما هو مفهوم، أو ممكن الفهم في غير هذه من القضايا والمشكلات.

فنحن نجد مثلاً الأستاذ المرحوم أحمد أمين، عندما يقارن بين الكواكبي وبين جمال الدين الأفغاني يقول: «كانت معالجة

الأفغاني للمسائل معالجة ثائر، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية، ومعالجة الكواكبي معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء، ويكتب الدواء في أناة، الأفغاني غضوب، والكواكبي مشفق، الأفغاني داع إلى السيف، والكواكبي داع إلى المدرسة. . فلا عجب أن كان للأفغاني دوي المدافع، وكان للكواكبي خرير الماء يعمل في بطء حتى يفتت الصخر!»[1].

غير أن إعجابنا بهذه الصياغة وذلك التحليل لا يجعلنا نسلم بالنتيجة المستخلصة منها بأي حال من الأحوال!.

كما أننا نجد تقويماً ثانياً للكواكبي يجعل منه «أقرب إصلاحي إلى معسكر الثوار» وأن منهجه في التفكير إنما كان منهج «الإصلاح الثوري» إن جاز ذلك التعبير»[2].

غير أن تبنينا لهذا الرأي، واعتقادنا له، وكتابتنا هذا الكلام منذ سنوات، لا يجعلنا نثبت عليه، وخاصة بعد أن استوعبنا دراسة الكواكبي إلى الحد الذي يتيح لنا أن نحكم بدقة في هذا الموضوع.

ولعل خير سبيل نستطيع من خلال سلوكها أن نحدد موقف الكواكبي من الوسيلة التي اختارها، أو مال إلى اختيارها لتحقيق

---

(١) أحمد أمين [زعماء الإصلاح في العصر الحديث] ص ٢٧٨.
(٢) [الغد] العدد ١، يناير سنة ١٩٥٩ م.

أهدافه هي أن نسترجع في ذهننا تلك القضايا التي أثارها، والحلول التي خطها قلمه في هذا الميدان.

ونحن نستطيع من خلال الفصول التي قدمناها عن أفكار الكواكبي وكذلك من خلال حديثنا عن حياته ومواقفه النضالية العملية، أن نؤكد أن الكواكبي قد أثار من القضايا، وأشار إلى حلول لا يمكن أن تعالج على النحو الذي أراده وحدده، بغير الثورة، والثورة الجارفة العميقة الجذور الحاسمة في التغيير، والجذرية في جانبي الهدم والبناء.

لأنه لا يناسب خطورة المشاكل، وعمق جذورها، وعظم الأهداف والحلول والاقتراحات التي خطها قلم الكواكبي إلا الثورة الشاملة التي تعيد بناء هذا المجتمع وترتيبه من جديد.

* * *

غير أن «الثورة» التي أرادها الكواكبي، والتي عمل من أجلها إنما كانت تختلف تمام الاختلاف عن «التمرد» التلقائي غير الواعي، الذي يحدث نتيجة الكبت الشديد، والذي لا تسبقه استعدادات كافية، ولا يصحبه تنفيذ مخطط سابق، والذي هو من أجل ذلك لا يصنع شيئاً غير التدمير والتخريب، فينطلق كالعاصفة الهوجاء لا يبقى ولا يذر شيئاً مما يلقاه في الطريق.

والكواكبي يتحدث عن هذا النوع من أنواع العنف، فيرفضه، ويقول: إن «الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي

لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً[1]. . . . على أن الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة **تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً**، فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً، قضت وظيفتها في حصد المنافقين، يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة»[2].

ولذلك فإننا نجده، بعد رفضه هذه التمردات التلقائية، والفتن المنفجرة دون تخطيط، يدعو إلى دراسة قضية مقاومة الاستبداد، والإعداد لها فيقول: إنه «**يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يستبدل به الاستبداد**»[3].

فهو هنا يهتم بقضية البديل لأنه صاحب قضية كبرى، وبرنامج حافل، ومسؤولية تثقل كاهل جيل بأكمله وأمة بأسرها، لا مجرد متمرد على الأوضاع!.

ومن هنا فهو لا يعتبر الثورات الشعبية التي حدثت في فرنسا، على عصره، بسبب فضائح عديدة، مثل «النياشين» و«بناما» و«دريفوس» فتنة بغيضة، بل يعتبرها مراقبة ومحاسبة للجمهورية الفرنسية، بل ويعتبر من هذا القبيل كذلك ما حدث للخليفة

---

(١) فهو لا يرفض المبدأ بقدر ما يخشى فوضى النتائج.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

الثالث عثمان بن عفان، فيقول: «إن الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها، كما جرى في صدر الإسلام فيما نقم على عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية في فرنسا في مسائل «النياشين» و«بناما» و«دريفوس»..»[1].

فإذا علمنا أن الكواكبي قد اتهم أكثر من مرة بإقامة تنظيم سياسي سري يسعى لقلب حكم العثمانيين[2].

وأن بعض أصدقائه وزملائه قد نقل عنه بصدد الحديث عن [جمعية أم القرى] قوله: «إن لهذه الجمعية أصلاً»[3]، وأنها ليست مجرد رواية ومحاورات متخيلة ـ وهو ما نميل إلى تأكيده والقطع به ـ أدركنا مكان الكواكبي من قضية الإيمان بالثورة كطريق لتغيير المجتمع وإعادة بنائه من جديد.

* * *

كما أننا نبصر في عديد من الصفحات التي حررها الكواكبي جهداً دائباً للأعداد للثورة، وعملاً متواصلاً لتهيئة الجو لقيامها،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢) [الغد] العدد ١٠ يناير سنة ١٩٥٩ م ود. بطرس غالي [الكواكبي والجامعة الإسلامية] ص ٨.

(٣) محمد رشيد رضا [المنار] سنة ١٩٠٢ م ٥/٢٧٩ [عن د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٥٥].

فهو يريد أن يشجع الناس على مطاولة المستبدين والانقضاض عليهم، فيساهم في إزالة الوهم الذي يكبل ثوريتهم فيقول لهم: «ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء في الطبيعة، أكفاء في الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية؟!. والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم، ولو درى الصغير بوهمه والعاجز بوهمه، ما في نفس الكبير من الخوف منه لزال الإشكال وقضى الأمر الذي فيه تختلفون ومنه تشقون!»[1].

بل هو يستحث الناس ويدفعهم إلى التحرك للانقضاض على المستبد عندما يقول: «إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه، لأن خوفه ينشأ عن علم، وخوفهم ناشىء عن جهل، وخوفه من انتقام بحق، وخوفهم عن توهم التخاذل، وخوفه من فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النبات وعلى وطن يألفون غيره في أيام؟!»[2].

بل إننا نراه يبلغ القمة في هذا الباب بتلك الصورة التي يقدمها لنا من خلال الكلمات التي يرويها عن العرب القدماء، عندما خرج «قيس» من مجلس «الوليد» مغضباً، يقول:

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥.

«أتريد أن تكون جباراً؟! والله إن نعال الصعاليك لأطول من سيفك؟!»[1].

* * *

وموقف الكواكبي من «العامة»، وجمهور الناس، وحديثه عن دورهم في الحياة، وفي الثورة، هو الآخر يقدم دليلاً جديداً على رأينا في مكانه من قضية الثورة، فهو يتساءل: «من هم العوام؟؟ ثم يجيب: «هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا. وهم الذين إذا علموا قالوا، وإذا قالوا فعلوا». ثم هو يرى كذلك أن هؤلاء العوام ليسوا كما مهملاً في المجتمع، بل إنهم هم منطقة التنازع والصراع الدائر ما بين المستبد وبين العلماء، فإن «بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً، يسعى العلماء في نشر العلم، ويجتهد المستبد في إطفاء نوره، والطرفان يتجاذبان العوام!»[2].

* * *

فإذا ما رأينا، علاوة على كل ذلك، مفكرنا يصدر كتابه [طبائع الاستبداد] بتلك العبارة ذات المغزى العميق، والتي تقول عن الكتاب: «إنه صيحة في واد، أو نفخة في رماد، إن ذهبت اليوم مع الريح، فستذهب غداً بالأوتاد»؟!.

وأضفنا إلى ذلك الحديث الذي كتبه عنه صديقه وزميله إبراهيم سليم النجار [المتوفى سنة ١٩٥٧ م] والذي يصفه فيه بأنه

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٤.

«كان في الحقيقة ثورياً بروحه وميوله، وكثيراً ما كان يقول لي: لو ملكت جيشاً لقلبت حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة»(١).

أدركنا كيف كان الكواكبي حقاً داعية ثورية مدروسة، وتغيير جذري للمجتمع، لأن ذلك هو الطريق الوحيد المناسب لعظم أهدافه، وخطر القضايا التي كشف عنها فيما كتب من صفحات.

وأدركنا كذلك أن الثورة بالنسبة للكواكبي لا يمكن إلا أن تكون النتيجة الطبيعية للمقدمات التي صاغها في شكل بحوث ومشاكل وقضايا واجهها واكتشفها في واقع المجتمع العربي في ذلك الحين، وحلول عملية وتغييرات جذرية قدمها لأمته كي تبعث ثانية، وتجدد عصبيتها وتلحق بالركب الإنساني المتطور، وتسهم في البناء الحضاري الإنساني بالقسط الذي يتلاءم مع ما لها من عراقة وأمجاد وتراث وتقاليد.

ذلك هو عبد الرحمن الكواكبي، في حياته ونضاله.. ونظرياته وأفكاره.. وسلوكه العملي الثوري، نقدمه، بناءً إنسانياً وفكرياً متكاملاً، ليكون منارة في ضمير حاضرنا ومستقبلنا، كما كان منارة في ضمير أمتنا، أضاءت ولا تزال تضيء منذ نحو قرن من الزمان.

---

(١) د. سامي الدهان [عبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٧. [نقلاً عن مجلة الحديد] حلب سنة ١٩٥١ م.

كلمات

[هي كلمات حق، وصيحة في واد... إن ذهبت اليوم مع الريح.. فلقد تذهب غداً بالأوتاد؟!..].

الكواكبي

● [لقد تمحص عندي أن أصل الداء هو: الاستبداد السياسي... ودواؤه هو: الشورى الدستورية..][1].

* * *

● [لقد تخلصت الأمم المتمدنة نوعاً من الجهالة، ولكن بليت بشدة الجندية الجبرية العمومية، تلك الشدة التي جعلتها أشقى حياة من الأمم الجاهلة، وألصق عاراً بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، حتى ربما يصح أن يقال: إن مخترع هذه الجنّدية، إذا كان هو الشيطان فقد انتقم من آدم في أولاده أعظم ما يمكنه أن ينتقم!..

نعم، إذا ما دامت هذه الجندية، التي مضى عليها نحو قرنين، إلى قرن آخر أيضاً، تنهك تجلد الأمم، وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري، كم يتعجب رجال الاستقبال من ترقي العلوم في هذا العصر ترقياً مقروناً باشتداد هذه المصيبة التي لا

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٣١.

تترك مجالاً لاستغراب إطاعة المصريين للفراعنة في بناء الأهرامات سخرة، لأن تلك لا تتجاوز التعب وضياع الأوقات، وأما الجندية فتفسد أخلاق الأمة، حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال، وتكلف الأمة الإنفاق الذي لا يطاق، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشئوم، استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة، من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض، من جهة أخرى..][1].

* * *

● [من أقبح أنواع الاستبداد: استبداد الجهل على العلم.. واستبداد النفس على العقل!..][2].

* * *

● [خلق الله الإنسان حراً، قائده العقل.. فكفر.. وأبى إلا أن يكون عبداً، قائده الجهل؟!..][3].

* * *

● [إن الصدق لا يدخل قصور الملوك؟!..][4].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٥.

● [يقول الرسول، ﷺ، «من أعان ظالماً على ظلمه سلطه الله عليه». ولا شك في أن إعانة الظالم تبتدىء من مجرد الإقامة في أرضه!..][1].

* * *

● [الاستبداد:

يد الله القوية الخفية، يصفع بها رقاب الأبقين من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين، الذين يشاركون الله في عظمته، ويعاندونه جهاراً!..

وهو نار غضب الله في الدنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة.. وقد خلق الله النار أقوى المطهرات، فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم أحراراً، وبسط لهم الأرض واسعة، وبذل فيها رزقهم، فكفروا بنعمته، ورضخوا للاستعباد؟!..][2].

* * *

● [لقد عدد الفقهاء من لا تقبل شهادتهم، لسقوط عدالتهم، فذكروا حتى من يأكل ماشياً في الأسواق!..

ولكن شيطان الاستبداد أنساهم أن يفسِّقوا الأمراء الظالمين فيردوا شهادتهم؟!.. اللهم إن المستبدين وشركاءهم قد جعلوا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩، ١٤٠.

دينـك غير الـدين الذي أنـزلت، فلا حـول ولا قـوة إلا بك!..][1].

* * *

● [إن الله، جل شأنه، ساوى بين عباده، مؤمنين وكافرين، في المكرمة، بقوله: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾[2].. ثم جعل الأفضلية في الكرامة للمتقين فقط، فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[3].. ومعنى التقوى، لغة، ليس كثرة العبادة، كما صار ذلك حقيقة غرسها علماء الاستبداد، القائلين في تفسير [عند الله]: أي في الآخرة، دون الدنيا... بل التقوى، لغة: هي الإتقاء، أي الابتعاد عن رذائل الأعمال، احترازاً من عقوبة الله..][4].

* * *

● [يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات في القلوب، لا في الحقوق!..][5].

* * *

● [جاء الإسلام مُحْكِماً لقواعد الحرية السياسية، المتوسطة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٦، ١٤٧.
(٢) الإسراء: ٧٠.
(٣) الحجرات: ١٣.
(٤) [الأعمال الكاملة] ص ١٤٧.
(٥) المصدر السابق، ص ١٦٠.

بين الديمقراطية والأرستقراطية، ونزع كل سلطة دينية أو تغلبية تتحكم في النفوس أو الأجسام، ووضع شريعة محكمة إجمالية صالحة لكل زمان وقوم ومكان، وأوجد مدنية فطرية سامية، وأظهر للوجود حكومة الخلفاء الراشدين التي قضت بالتساوي حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها، أولئك الخلفاء الذين أحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة، لكل منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية، ووظيفة قومية.

على أن هذا الطراز السامي من الرياسة هو الطراز النبوي المحمدي، لم يخلفه فيه حقاً غير أبي بكر وعمر، ثم أخذ بالتناقص، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسي شورى، ذلك الطراز الذي اهتدت إليه بعض أمم الغرب، تلك الأمم التي، لربما صح أن نقول: قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفاده المسلمون..][1].

* * *

● [إن الإسلامية مؤسسة على أصول الحرية، برفعها كل سيطرة وتحكم، وبأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وبحضها على الإحسان والتحابب... وقد جعلت أصول

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٤، ١٤٥.

حكومتها: الشورى الأريستوقراطية، أي شورى أهل الحل والعقد في الأمة بعقولهم لا بسيوفهم. وجعل أصول إدارة الأمة: التشريع الديمقراطي، أي الاشتراكي..][1].

* * *

● [من المعلوم أنه لا يوجد في الإسلامية نفوذ ديني مطلقاً في غير: مسائل إقامة شعائر الدين، ومنها القواعد العامة التشريعية، التي تبلغ مائة قاعدة وحكم، كل من أجل وأحسن ما اهتدي إليه المشرعون من قبل ومن بعد..][2].

* * *

● [المستبد لا يخشى علوم اللغة، إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحل عقد الجيوش.. ولا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المختصة بما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علماً غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر!..

على أنه إذا نبغ منهم البعض، ونالوا حرمة بين العوام، لا

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد..

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الصناعية محضاً، لأن أهلها يكونون مسالمين، صغار النفوس، صغار الهمم، يشتريهم المستبد بقليل من المال والإعزاز.

ولا يخاف من الماديين، لأن أكثرهم مبتلون بإيثار النفس.. ولا من الرياضيين، لأن غالبهم قصار النظر.. ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة، مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه؟ وكم هو مغبون فيها؟ وكيف الطلب؟ وكيف النوال؟ وكيف الحفظ؟؟..

وأخوف ما يخاف المستبد من أصحاب هذه العلوم المندفعين منهم لتعليم الناس بالخطابة أو الكتابة، وهم المعبر عنهم في القرآن «بالصالحين» و«المصلحين» في نحو قوله تعالى: ﴿ إن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[1].. وفي قوله: ﴿ وما كان ربكم ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[2].. ـ وإن كان

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) هود: ١١٧.

علماء الاستبداد يفسرون مادة «الصلاح» و«الإصلاح» بكثرة التعبد، كما حولوا معنى مادة «الفساد» و«الإفساد» من تخريب نظام الله إلى التشويش على المستبدين! ـ. . . .][1].

* * *

● [إن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً. .

يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها. . والطرفان يتجاذبان العوام. . ومن هم العوام؟؟. .

هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا!. .

العوام هم قُوَّة المستبد وقُوتُه، بهم عليهم يصول ويطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته!. . ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم!. . ويهينهم، فيثنون على رفعته!. . ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته!. . وإذا أسرف في أموالهم، يقولون: كريماً!. . وإذا قتل منهم ولم يمثل، يعتبرونه رحيماً!. . ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ!. . وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلهم كأنهم بغاة!. .

والحاصل، أن العوام يزيحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل، وتنور العقل، زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما

(١)[الأعمال الكاملة] ص ١٥٣، ١٥٤.

قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه... وعند ذلك لا بد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال!][1].

* * *

● [إن خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه.. لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم، وخوفهم ناشىء عن جهل.. خوفه عن عجز حقيقي فيه، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط. وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقيمات من النبات، وعلى وطن يألفون غيره في أيام.. وخوفه على كل شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط..][2].

* * *

● [إن خير ما يستدل به على درجة استبداد الحكومات هو: تغاليها في شنآن الملوك، وفخامة القصور، وعظم الحفلات، ومراسيم التشريفات، وعلائم الأبهة، ونحو ذلك من التمويهات التي يسترهب بها الملوك رعاياهم عوضاً عن العقل والمفاداة. وهذه التمويهات يلجأ إليها المستبد كما يلجأ قليل العز للتكبر، وقليل العلم للتصوف، وقليل الصدق لليمين، وقليل المال لزينة اللباس.

كذلك يستدل على عراقة الأمة في الاستعباد أو الحرية

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥.

باستنطاق لغتها، هل هي قليلة ألفاظ التعظيم، كالعربية، مثلاً؟ أم هي غنية في عبارات الخضوع، كالفارسية؟ وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين: أنا، وأنت.. بل: سيدي، وعبدكم؟!..][1].

* * *

● [إن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الأمة كما في الحكومات الدستورية..][2].

* * *

● [يخف الاستبداد كلما قل عدد نفوس الرعية، وقل الارتباط بالأملاك الثابتة، وقل التفاوت في الثروة، وكلما ترقى الشعب في المعارف..][3].

* * *

● [الأصلاء، باعتبار أكثريتهم، هم جرثومة البلاء في كل قبيلة، ومن كل قبيل، لأن بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أن ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية، ونشأ من تنازعها تميز أفراد على أفراد، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء.

(١) المصدر السابق، ص ١٥٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص ١٣٧.

فالأصلاء، في عشيرة أو أمة، إذا كانوا متقاربي القوات استبدوا على باقي الناس، وأسسوا حكومة أشراف، ومتى وجد بيت من الأصلاء يتميز كثيراً في القوة على باقي البيوت، يستبد وحده ويؤسس الحكومة الفردية، المقيدة إذا كان لباقي البيوت بقية بأس، والمطلقة إذا لم يبق أمامه من يتقّيه.

بناء عليه، إذا لم يوجد في أمة أصلاء بالكلية، أو وجدوا ولكن كان لسواد الناس صوت غالب، أقامت تلك الأمة لنفسها حكومة انتخابية، لا وراثة فيها ابتداء..][1].

* * *

● [يصرف بعض المستبدين شيئاً في الصدقات وبناء المعابد، سمعة ورياء، وكأنهم يريدون أن يسرقوا، أيضاً، قلوب الناس، بعد سلب أموالهم!.. أو أنهم يرشون الله!.. ألا ساء ما يتوهمون!..][2].

* * *

● [إن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بالمتمجدين[3].. والأمة، أي أمة كانت، ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها، ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٣) متكلفي أسباب المجد ومظاهره.

والثبات، حتى إذا ما اكفهرت سماء عقول بنيها قيض الله لها من جمعهم الكبير أفراداً كبار النفوس، قادة أبراراً، يشترون لها السعادة بشقائهم، والحياة بموتهم، حيث يكون الله جعل في ذلك لذتهم، ولمثل تلك الشهادة الشريفة خلقهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فساقاً فجاراً، مهالكهم الشهوات والمثالب.

فسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء، وهو الخلاق العظيم..][1].

* * *

● [الاستبداد.. لو كان رجلاً، وأراد أن ينتسب، لقال:

أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذل، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال، المال، المال!..][2].

* * *

● [إن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدينة على نسبة الترقي المضاعف!.. فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والثمرات، فتعيش كما يعيش..

والحضرية، تسلب الرجل، لأجل معيشتها وزينتها، اثنين من ثلاثة، وتعينه في أعمال البيت..

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٨.

والمدنية، تسلب ثلاثة من أربعة، وتود أن لا تخرج من الفراش..

وهكذا تترقى بنات العواصم في أسر الرجال؟!.. وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوربا أن تسمى بالمدنية النسائية، لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء!..][1].

* * *

● [إن الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة..

فأهل السياسة والأديان ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة، ينفقون ذلك في الرفه والإسراف.. مثال ذلك أنهم يزينون الشوارع بملايين المصابيح لمرورهم فيها أحياناً، متراوحين بين الملاهي والمواخير، ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام.

ثم أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون، وأمثال هذه الطبقة، ويقدرون كذلك بخمسة في المائة، يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئآت أو الألوف من الصناع والزراع..

وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هي الاستبداد، لا غيره..

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٩.

وهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلاً، إنما يعيشون بالحيلة، كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب أو الدين، وهؤلاء يقدرون بخمسة عشر في المائة، أو يزيدون على أولئك..

نعم، لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط، ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت، بل تقتضي الإنسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل فيقربه من منزلته، ويقاربه في معيشته، ويعينه على الاستقلال في حياته..][1].

* * *

● [لا! لا!..

لا يطلب الفقير معاونة الغني، إنما يرجوه أن لا يظلمه، ولا يلتمس منه الرحمة، إنما يلتمس العدالة، ولا يؤمل منه الإنصاف، إنما يسأله أن لا يميته في ميدان مزاحمة الحياة!..][2].

* * *

● [المال يستمد من الفيض الذي أودعه الله تعالى في الطبيعة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) المصدرالسابق، ص ١٧٠.

ونواميسها، ولا يملك، أي لا يتخصص بإنسان إلا بعمل فيه أو في مقابله. .][1].

* * *

● [إن أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول:

١ ـ استحضاره المواد الأصلية. .

٢ ـ تهيئته المواد للانتفاع بها. .

٣ ـ توزيعها على الناس. .

وهي الأصول التي تسمى بالزراعة والصناعة والتجارة. . وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهي وسائل ظالمة لا خير فيها. .][2].

* * *

● [تراكم الثروات المفرطة، مولد للاستبداد، ومضر بأخلاق الأفراد. .][3].

* * *

● [قررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط! . .][4].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٢.

● [جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كلية، تصلح للإحاطة بأحكام كافة الشؤون، حتى الجزئية الشخصية، وأناطت تنفيذها بالحكومة، كما تطلبه الآن أغلب جمعيات الاشتراكيين..][1].

* * *

● [إن المعيشة الاشتراكية هي من أبدع ما يتصوره العقل..][2].

* * *

● [لقد جعل الله الأراضي مرحاً لكافة المخلوقات..][3].

* * *

● [لا يجوز أن يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير..][4].

* * *

● [بالربا تربو[5] الثروات، فيختل التساوي أو التقارب بين الناس..][6].

* * *

● [ضرر الثروات الفردية، في جمهور الأمم، أكبر من

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٢.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص ١٧٤.
(٥) تربو: أي تنمو وتزيد..
(٦) [الأعمال الكاملة] ص ١٧٤.

نفعها، لأنها تمكن الاستبداد الداخلي، فتجعل الناس صنفين: عبيداً، وأسياداً.. وتقوى الاستبداد الخارجي، فتسهل للأمم التي تغنى بغنى أفرادها التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة، وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة، وذلك يقتضي تحريم الربا تحريماً مطلقاً..][1].

* * *

● [الانتظام العام..

هو معيشة «الاشتراك العمومي»، التي أسسها الإنجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين، ولكن لم يكد يخرج ذلك من القوة إلى الفعل..

ثم أحدث الإسلام سنة الاشتراك على أتم نظام، ولكن لم تدم أيضاً أكثر من قرن واحد، كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات، وذلك أن الإسلامية قد أسست حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة، فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة: أن المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع!..

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء، بحيث يحصل التعديل، ولا يموت النشاط للعمل.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٤.

وهذه القاعدة يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي، وتسعى وراءها جمعيات تطلب أن تكون الأراضي والأملاك الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأن الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه متقاربة بين الجميع، وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشؤون، حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها.

وهذه الأصول، مع بعض التعديل، قررتها الإسلامية ديناً..][1].

* * *

● [حرص التَّموُّل[2]، وهو الطمع القبيح، يخف كثيراً عند أهل الحكومات العادلة المنتظمة، ما لم يكن فساد الأخلاق متغلباً على الأهالي، كأكثر الأمم المتمدنة في عهدنا، لأن فساد الأخلاق يزيد في الميل إلى التحول في نسبة الحاجة الإسرافية، ولكن تحصيل الثروة الطائلة في عهد الحكومة العادلة عسير جداً، وقد لا يتأتى إلا من طريق المراباة مع الأمم المنحطة، أو التجارة الكبيرة التي فيها نوع احتكار، أو الاستعمار في البلاد البعيدة، مع المخاطرات..

وحرص التمول القبيح يشتد كثيراً في رؤوس الناس في عهد

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢) التمول: هو جمع المال والاستزادة من الثروة الفردية..

الحكومات المستبدة، حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدي على الحقوق العامة، أو بغضب ما في أيدي الضعفاء!..][1].

* * *

● [الأغنياء..

أعداء المستبد فكراً، وأوتاده عملاً!..

فهم ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون،.. ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها؟!..

أما الفقراء..

فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة، يقصد بذلك أن يغضب، أيضاً، قلوبهم التي لا يملكون غيرها.

والفقراء، كذلك، يخافونه خوف دناءة ونذالة، خوف البغاث[2] من العقاب[3]، فهم لا يجسرون على الافتكار، فضلاً عن الإنكار، كأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم!..][4].

* * *

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢) البغاث: طائر صغير بطيء الطيران.

(٣) العقاب: من جوارح الطير، قوي، ذو مخالب.

(٤) [الأعمال الكاملة] ص ١٧٦.

● [قديماً لم تكن هناك أهمية للثروة العمومية، أما الآن، وقد صارت المحاربات محض مغاليات علم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال.. والأمم المأسورة[1] لا نصيب لها من الثروة العمومية، بل منزلتها في المجتمع الإنساني كأنعام تتناقلها الأيدي..][2].

* * *

● [للمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائص أهل الفضيلة والكمال، الذين يفضلون الكفاف من الرزق، مع حفظ الحرية والشرف، على امتلاك دواعي الترف والسرف، وينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة الكمالية، إنه بلاء في بلاء في بلاء!.. أي إنه بلاء من حيث التعب في تحصيله، وبلاء من حيث القلق على حفظه، وبلاء من حيث الافتكار بإنمائه..

وأما المكتفي فيعيش مطمئناً مستريحاً آمناً بعض الأمن على دينه وشرفه وأخلاقه..][3].

* * *

● [لا يكون الإنسان حراً تماماً ما لم تكن له صنعة مستقل فيها..][4].

* * *

---

(١) المستعبدة..

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٧.

● [الاستبداد..

داء أشد وطأة من البلاء، أكثر هولاً من الحريق، أعظم تخريباً من السيل، أذل للنفوس من السؤال..

داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي: القضاء! القضاء!.. والأرض تناجي ربها بكشف البلاء!..

وأسعد الناس، في عهد الاستبداد، هم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء؟!..][1].

* * *

● [وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم.. والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا؟!..][2].

* * *

● [قد يظن بعض الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرة، فيقولون مثلاً: الاستبداد يلين الطباع ويلطفها!..

والحق، أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة، لا عن فقد الشراسة؟!..

(١) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٩.

ويقولون: الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير..

والحق، أن هذا فيه عن خوف وجبانة، لا عن اختيار وإذعان؟!..

ويقولون: هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود..

والحق، أن ليس هناك غير انكماش وتقهقر؟!..

ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور..

والحق، أنه عن فقر وعجز، لا عن عفة ودين؟!.

ويقولون: يقلل التعديات والجرائم..

والحق، أنه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقل تعديدها، لا أعدادها؟!..][1].

* * *

● [ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس أهم الأمور، أطلقت الأمم حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات، مستثنية القذف فقط.. ورأت أن تحمل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد، لأنه لا مانع للحكام أن يجعلوا الشعرة من

(١) المصدر السابق، ص ١٧٩.

التقييد سلسلة من حديد، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية، أي الحرية.. وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾[1]..][2].

* * *

● [إن الاشتراك هو أعظم سر في الكائنات، به قيام كل شيء، ما عدا الله وحده..][3].

* * *

● [الشرق مريض.. لماذا؟؟..

من قائل: الشرق مريض، وسببه الجهل..

ومن قائل: الجهل بلاء، وسببه قلة المدارس..

ومن قائل: قلة المدارس عار، وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد، أو من قبل ذوي الشأن..

وهذا أعمق ما يخطه قلم الكاتب الشرقي، كأنه وصل إلى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري.

والحقيقة أن هناك سلسلة أسباب أخرى، حلقتها الأولى: الاستبداد..

---

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٨١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٣.

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض، وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يقف. مع أنه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأن التهاون في الدين أولاً وآخراً ناشىء من الاستبداد..

وآخر يقول: إن السبب فساد الأخلاق.. وغيره يرى أنه: فقد التربية.. وسواه ظن أنه الكسل..

والحقيقة، أن المرجع الأول في الكل هو الاستبداد، الذي يمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب؟!..][1].

* * *

● [لقد سلك الأنبياء، عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء.. أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه، وذلك بتقوية حسن الإيمان، المفطور عليه وجدان كل إنسان..

ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادىء الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد، وسدوا منبع الفساد.

ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية، ومطالب بحسن الأخلاق، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقنع، وبث التربية التهذيبية.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.

والحكماء السياسيون الأقدمون اتبعوا الأنبياء، عليهم السلام، في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب، أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية، تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم بإتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع..](1).

* * *

● [الغربي...

مادي الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة، حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادىء العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق..

أما أهل الشرق فهم..

أدبيون، يغلب عليهم ضعف القلب، وسلطان الحب، والإصغاء للوجدان، والميل للرحمة ولو في غير موقعها، واللطف ولو مع الخصم، ويرون العز في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأنس والسكينة، واللذة في الكرم والحبب، وهم يغضبون، ولكن للدين، ويغارون، ولكن على العرض فقط.

ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة،

---

(1) المصدر السابق، ص ١٨٤.

فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإن تكلف تقليد، في أمر لا يحسن التقليد، وإن أحسنه فلا يثبت، وإن ثبت فلا يعرف استثماره، حتى لو سقطت الثمرة في كفه تمنى لو قفزت إلى فمه؟!..

قد يفضل الشرقي على الغربي في الإفراديات، لكن الغربي يفضل على الشرقي في الاجتماعيات..

الشرقي: سريع التصديق... والغربي: لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس...

الشرقي: أكثر ما يغار على الفروج، كأنه شرفه كله مستودع فيها!... والغربي: أكثر ما يغار على حريته واستقلاله...

الشرقي: حريص على الدين، والرياء فيه... والغربي: حريص على القوة والعز، والمزيد فيهما...

والخلاصة، أن الشرقي: ابن الماضي والخيال... والغربي: ابن المستقبل والجد..][1].

* * *

● [ما أحوج الشرقيين أجمعين، من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء «العلماء» المرائين الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، فيجددون

(١) المصدر السابق، ص ١٨٥، ١٨٦.

النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح، نظر من لا يضيع النتائج بتشويش المقدمات، نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة، نظر من يريد وجه ربه لا استحالة الناس إليه، وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادةً على كل دين يتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء، من حيث تمليك الإرادة ورفع البلادة من كل ما يشين، المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين، قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة، مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه، لا بالكفر، يعيش الناس إخواناً. .][1].

* * *

● [أمر غريب. . .

إن كل الأمم المنحطة، من جميع الأديان، تحصر بلية انحطاطها السياسي في تهاونها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكاً مكيناً، ويريدون بالدين العبادة. .

ولنعم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً؟!. .

لكنه لا يفيد أبداً، لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه فعل،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦، ١٨٧.

وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرساً طيباً نبت ونما، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات، أو أرضاً مغراقاً هاف ولم يثمر. . .

وما هي أرض الدين؟؟ . .

أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها وبصيرتها، وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك، اللذين زيادتها عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما، كما هو مشاهد في المتنسكين! . .

نعم، الدين يفيد الترقي الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي نتطلبها منذ ألف عام عبثاً! . .

وقد علمنا هذا الدهر الطويل، مع الأسف، أن أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهواً ورياءً . .

بناء عليه، ما أجدر الأمم المنحطة أن تلتمس دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء الهمة، مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1] . . لا أن يتكلموا على أن الصلاة تمنع الناس عنهما بطبعها . .][2] .

* * *

---

(١) العنكبوت: ٤٥ .

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ١٨٧، ١٨٨ .

● [الاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه، أي الأخلاق. .

وأما العبادات منه فلا يمسها، لأنها تلائمه، في الأكثر؟!. . ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبارات مجردة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً، ولا تنهى عن فحشاء ولا منكر!. .][1].

* * *

● [الأسير المعذب: المنتسب إلى دين، يسلي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعدها بجنان ذات أفنان، ونعيم مقيم أعده له الرحمن. .

ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وأنه ربما كان خاسر الصفقتين، بل ذلك هو الكائن غالباً؟!. .

ولبسطاء الإسلام مسليات أظنها خاصة بهم، يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: الدنيا سجن المؤمن!. المؤمن مصاب!. إذا أحب الله عبداً ابتلاه!. هذا شأن آخر الزمان!. حسب المرء لقيمات يقمن صلبه!..... ويتناسون حديث: «إن الله يكره العبد البطال» والحديث المفيد معنى: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها»[2]. . ويتغافلون عن

(١) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٢) رواه أحمد بن حنبل.

النص القاطع المؤجل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفها وزينتها. . . وأين ذلك بعد؟!. .][1].

* * *

● [إن عبيد السلطة، التي لا حدود لها، هم غير مالكين انفسهم، ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم، بل هم يربون أنعاماً للمستبدين! وأعواناً لهم عليهم؟!. .

وفي الحقيقة، إن الأولاد، في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق!. .][2].

* * *

● [الإقناع، في التربية، خير من الترغيب. . فضلاً عن الترهيب!. .

والتعليم، مع الحرية بين المعلم والمتعلم، خير من التعليم مع الوقار!. .

وإن التعليم عن رغبة في التكمل أرسخ من العلم الحاصل طمعاً في المكافأة، أو غيرة من الأقران. .][3].

* * *

---

(١) [الأعمال الكاملة] ص ١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٧.

● [إن المدارس تقلل الجنايات، لا السجون!.. وإن القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس..][1].

* * *

● [لو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف «المساكين»، الذين جعل لهم الله نصيباً من الزكاة، فقالوا: عبيد الاستبداد!.. ولجعلوا كفارات فك الرقاب تشمل هذا الرق الأكبر؟!..][2].

* * *

● [الإسلام دين الفطرة.. وهو مبني على العقل المحض..

ولا أعني بالإسلام ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنما أريد بالإسلام: دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر بتصفح زيد أو تحكم عمرو..

فلا شك أن الدين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخرفين، وأنفع وازع يضبط النفس من الشطط، وأقوى مؤثر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشط على الأعمال المهمة الخطرة، وأجل مثبت على المبادىء الشريفة. وفي النتيجة يكون

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد، رقياً وانحطاطاً..] [1].

* * *

● [إن الناظر في القرآن حق النظر يرى أنه لا يكلف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذره وينهاه عن الإيمان اتباعاً لرأي الغير أو تقليداً للآباء..] [2].

* * *

● [ما أظن هؤلاء الذين أنكروا فائدة الدين قد أنكروا ذلك إلا من عدم اطلاعهم على دين صحيح، مع يأسهم من إصلاح ما لديهم، عجزاً عن مقاومة أنصار الفساد.

وإذا نظرنا في أن هؤلاء أنفسهم هم في آن واحد: يشددون النكير على الدين من جهة، قائلين: إن ضرره أكبر من نفعه، ويهيجون، من جهة أخرى، مؤثرات أدبية وهمية محضاً، يرون أنه لا بد منها في بناء الأمم، وذلك مثل: حب الوطن وخيانته، وحب الإنسانية والإساءة إليها، والسمعة الحسنة وعكسها، والذكر التاريخي بالخير أو الشر، ونحو ذلك مما هو لا شيء في ذاته، ولا شيء أيضاً بالنسبة إلى تأثير طاعة الله والخوف منه..

لأن «الله» حقيقة لا ريب فيها، بل ولا خلاف إلا في الأسماء

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠١.

بين (الله) وبين (مادة) أو (طبيعة). ولولا أن الماديين والطبيعيين يأبون الاسترسال في البحث في صفات ما يسمونه (مادة) أو (طبيعة)، لالتقوا ولا شك مع الإسلام في نقطة واحدة فارتفع الخلاف العلمي، وأسلم الكل لله..][1].

* * *

● [إن الهرب من الموت موت!.. وطلب الموت حياة!.. والخوف من التعب تعب!.. والإقدام على التعب راحة!..

والحرية هي شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المسفوح.. والأسارة[2] هي شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من الدم الأبيض، أي الدموع!..

ولو كبرت النفوس لتفاخرت بتزيين الصدور بورود الجروح، لا بوسامات الظالمين!..][3].

* * *

● [يا قوم، وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين. وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد..

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢) العبودية..

(٣) [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٦.

هذه أمم «أوستريا»[1] وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني، دون الديني، والوفاق الجنسي، دون المذهبي، والارتباط السياسي، دون الإداري، فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها؟!.. فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء، من الأعجام والأجانب: دعونا، يا هؤلاء، ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي: فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء!..

أدعوكم، وأخص منكم النجباء، للتبصر والتبصير فيما إليه المصير، أليس مطلق العربي آخف استحقاراً لأخيه من الغربي؟!.. هذا الغربي قد أصبح مادياً، لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذباً!..][2].

* * *

● [يا قوم، وأريد بكم شباب اليوم، رجال الغد، شباب الفكر، ورجال الجد، أعيذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان، وأعيذكم من الجهل، جهل أن الدينونة[3] لله، وهو،

---

(١) أي النمسا..

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٨.

(٣) الدينونة: القضاء والحساب.

سبحانه، ولي السرائر والضمائر ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾[1]. .][2].

* * *

● [الحر: من يفقه أن القضاء والقدر هما، عند الله: ما يعلمه ويمضيه، وهما، عند الناس: السعي والعمل. ويوقن أن كل أثر ظهر على الأرض هو من عمل إخوانه البشر. .][3].

* * *

● [إلى الآن، لم توجد أمة حكمت نفسها برأيها العام حكماً لا يشوبه نوع من الاستبداد، ولو باسم الوقار والاحترام؟!. . أو بنوع من الإغفال، ولو نبذر الشقاق الديني أو الجنسي بين الناس. .][4].

* * *

● [قد يبلغ الترقي، في الاستقلال الشخصي، مع التركيب بالعائلة والعشيرة، أن يعيش الإنسان معتبراً نفسه، من وجه: غنياً عن العالمين، ومن وجه: عضواً حقيقياً من جسم حي هو العائلة، ثم الأمة، ثم البشر. . وينظر إلى انقسام البشر إلى: أمم، ثم إلى عائلات، ثم إلى أفراد، على أنه من قبيل انقسام

---

(١) هود: ١١٨.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ٢١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١١.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٣.

الممالك إلى: مدن، وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق..][1].

* * *

● [قد يترفع الإنسان عن الأمارة، لما فيها من معنى الكبر.. وعن التجارة، لما فيها من التمويه والتبذل.. فيرى الشرف في: المحراث، ثم المطرقة، ثم القلم.. ويرى اللذة في التجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق، كأن له وظيفة في ترقي مجموع البشر..][2].

* * *

● [الحكومة المستبدة هي التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم.. والحكومة الحرة هي وكالة تقام بإرادة الأمة، لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية..][3].

* * *

● [ليس للحكومة سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر.. فوظيفتها لا تتعدى حفظ الجامعات الكبرى، كالدين، والجنسية[4]، واللغة، والعادات، والآداب العمومية، مستعملة الحكمة ما أغنت عن الزواجر..

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٨.

(٤) الجنسية: القومية.

وليس للحكومة أن تتداخل في أمر الدين ما لم تنتهك حرمته.. والسياسة الإسلامية ليست سياسة دينية، وهي لم تكن كذلك إلا في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العرفية عقب الفتح؟!..

ولا يجوز الجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد، فالسياسة، والدين، والتعليم يجب توزيع سلطاتها على من يقوم بكل منها بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾[1].. ولذلك لا يجوز الجمع، منعاً لاستفحال السلطة..][2].

* * *

● [إن الاستبداد محفوف بأنواع القوات، التي منها:

قوة الإرهاب بالعظمة..

وقوة الجند، لا سيما إذا كان غريب الجنس..

وقوة المال..

وقوة الألفة على القسوة .

وقوة رجال الدين..

وقوة أهل الثروات..

وقوة الأنصار من الأجانب...

(١) الأحزاب : ٤.

(٢) [الأعمال الكاملة] ص ٢٢٠، ٢٢١.

فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف، لا يقابل بعصا الفكر العام، الذي هو في أول نشأته يكون أشبه بغوغاء. ومن طبع الفكر العام أنه إذا فار في سنة يغور في سنة، وإذا فـار في يوم يغور في يوم..

بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد، المصحوبان بالحزم والإقدام..][1].

* * *

● [الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً.

نعم، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً، فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً، وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة..][2].

* * *

● [العوام لا يثور غضبهم على المستبد، غالباً، إلا عقب أحوال مخصوصة، مهيجة، فورية، منها:

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٥.

١ ـ عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه . .
٢ ـ عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً، ولا يتمكن من إلصاق عار الغلب بخيانة القواد . .
٣ ـ عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين إهانة مصحوبة باستهزاء حدة العوام . .
٤ ـ عقب تضييق شديد عام، مقاضاة لمال كثير، لا يتيسر إعطاؤه حتى على أواسط الناس . .
٥ ـ في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد . .
٦ ـ عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري كتعرضه لناموس العرض . .
٧ ـ عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الإستجارة والاستنصار . .
٨ ـ عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدواً لشرفها . .

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون: الحق، الحق، الانتصار للحق، الموت أو بلوغ الحق! . .][1].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٥، ٢٢٦.

● [قبل مقاومة الاستبداد يجب تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد. . من مثل تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد. وليس هذا بالأمر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة. وهذا الاستعداد الفكري النظري لا يجوز أن يكون مقصوراً على الخواص، بل لا بد من تعميمه، وعلى حسب الإمكان، ليكون بعيداً عن الغايات، ومعضوداً بقبول الرأي العام، فمعرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها. . فلا بد من تعيين المطلب والخطة، تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل، أو لرأي الأكثرية، التي هي فوق الثلاثة أرباع، عدداً أو قوة بأس. .][1].

● [سنة الله في خلقه. .

إن كل أمر، كلياً كان أو جزئياً، لا يحصل إلا بقوة وزمان متناسبين مع أهميته، وأن كل أمر يحصل بقوة قليلة في زمان طويل يكون أحكم وأرسخ وأطول عمراً مما إذا حصل بمزيد قوة في زمان قصير. .][2].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٤٣.

● [ليس في البشر من ينسب أمراً إلى القدر إلا عند الجهل بسببه، ستر الجهلة، أو عند العجز عن نيل الخير أو دفع الشر، ستر العجز.

وحيث غلب أخيراً على المسلمين جهل أسباب المسببات الكونية، والعجز عن كل عمل، التجأوا إلى الغدر والزهد، تمويهاً لا تديناً. .][1].

* * *

● [من أسباب «الفتور» في المسلمين:

تحول نوع السياسة الإسلامية، فلقد كانت نيابية اشتراكية، أي «ديمقراطية» تماماً، فصارت، بعد الراشدين، بسبب تمادي المحاربات الداخلية، ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم صارت أشبه بالمطلقة. .][2].

* * *

● [لقد أثبت الحكماء المدققون، بعد البحث الطويل العميق، أن المنشأ الأصلي لكل شفاء في بني حواء هو أمر واحد لا ثاني له: ألا وهو وجود السلطة القانونية منحلة، ولو قليلاً، لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصية أوأشخاصية عليها. .][3].

* * *

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

● [من أعظم أسباب فقر الأمة:

أن شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للبائس والمحروم، فيؤخذ من الأغنياء ويوزع على الفقراء. وهذه الحكومات الإسلامية قد قلبت الموضوع، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابي بها المسرفين والسفهاء..

ولو عاش المسلمون مسلمين حقيقة لأمنوا الفقر، وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم، الذي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي..][1].

* * *

● [لقد وجد فينا علماء كان أحدهم يطلع في الكتاب أو السنة على أمر أو نهي، فيتلقاه على حسب فهمه، ثم يعدي الحكم إلى أجزاء المأمور به، أو المنهي عنه، أو إلى دواعيه، أو إلى ما يشاكله، ولو من بعض الوجوه، وذلك رغبة منه في أن يلتمس لكل أمر حكماً شرعياً، فتختلط الأمور في فكره، وتشتبه عليه الأحكام، ولا سيما من تعارض الروايات، فيلتزم الأشد، ويأخذ بالأحوط، ويجعله شرعاً.

ومنهم من توسع فصار يحمل كل ما فعله أو قاله الرسول، عليه السلام، على التشريع.. والحق أن النبي، ﷺ، قال وفعل

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

أشياء كثيرة على سبيل الاختصاص، أو الحكاية، أو العادة. .][1].

* * *

● [العرب. . .

أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية. .

وهم أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية. .

وهم أهدى الأمم في أصول المعيشة الاشتراكية. .

وهم أحرص الأمم على احترام العهود، عزة، واحترام الذمة، إنسانية، واحترام الجور، شهامة، وبذل المعروف، مروءة. .

وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء، فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً. . . فهم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، بل الكلمة الشرقية. .][2].

* *
*

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٧، ٣٥٨.

المصادر

١ ـ ابن منظور: [لسان العرب] طبعة القاهرة.

٢ ـ أبو داود: [السنن] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م.

٣ ـ أحمد أمين: [زعماء الإصلاح في العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ م. [ظهر الإسلام] طبعة القاهرة.

٤ ـ أمين الخولي: [في أموالهم] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م. [المجددون في الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

٥ ـ بطرس بطرس غالي (دكتور): [الكواكبي والجامعة الإسلامية] طبعة القاهرة ـ كتب قومية ـ رقم (٣٤).

٦ ـ الجاحظ: [رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

٧ ـ جرجي زيدان: [تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٢ م.

٨ ـ جمال الدين الأفغاني: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م.

٩ ـ الزركلي (خير الدين): [الأعلام] طبعة بيروت ـ الثالثة.

١٠ ـ الزمخشري: [أساس البلاغة] طبعة دار الشعب ـ القاهرة.

١١ ـ سامي الدهان (دكتور): [عبد الرحمن الكواكبي] طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ م.

١٢ ـ طه حسين (دكتور): [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م.
١٣ ـ عبد الرحمن الكواكبي: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت ـ الثانية ـ سنة ١٩٧٥ م.
١٤ ـ عبد الرحمن الكواكبي (الحفيد ـ دكتور): [مقدمة «طبائع الاستبداد»] طبعة حلب سنة ١٩٥٧ م.
١٥ ـ محمد ضياء الدين الريس (دكتور): [الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م.
١٦ ـ محمد عبده (الأستاذ الإمام): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ـ طبعة بيروت ـ سنة ١٩٧٢ م.
١٧ ـ محمد عمارة (دكتور): [القومية العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م. [من التراث الإسلامي] دراسة بمجلة [الغد] المصرية ـ يناير ـ سنة ١٩٥٩ م.
١٨ ـ محمد فؤاد عبد الباقي: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ.
١٩ ـ وينسنك (ا. ى): [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩ م.
٢٠ ـ وثائق: [المؤتمر العربي الأول] طبعة القاهرة سنة ١٩١٣ م.

الفهرس

رقم الايداع ١٧٤٤/ ٨٨
الرقيم الدولى . ١ ـ ١٨٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧